أبناء الآلهة

أبناء الآلهة

البداية الأخيرة

ماريهام قدّيس

تصميم الغلاف: إسلام علام

رقم الإيداع: 23950 /2018

I.S.B.N:978- 977-6640-39-9

الطبعة الأولى 2019م

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطربة، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر: د. رامي عبد الباقي

شؤون إدارية: رقية عبد الله

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

ماريهام قدّيس

أبناء الآلهة

البداية الأخيرة

رواية

للنشر والتوزيع

إهداء

إلى من أتعبت قلبيهما كثيرا

أبي

وأمي

إلى زوجي العزيز، الشخص الذي عجزت اللغة في ابتكار كلمات تصفه

لولاه ما كنت جررت قلما.

إلى ابنتي العزيزة إلى قلبي

سارة

أهدي هذا العمل المتواضع.

الفصل الأول

ديسمبر عام 1990

شهر يرحل معه عام بكل ما فيه من أحداث ومشاعر.

مطار القاهرة..

لم يكن المطار مزدحما بشكل كبير كعادته في هذا الفصل من السنة. فقد ألقى غزو العراق للكويت في شهر أغسطس من نفس العام بعباءة سوداء على موسم السياحة. قلت أعداد السائحين كثيرا مما كانت عليه من ذي قبل. ورغم ذلك كان المطار يمتلأ بالقليل منهم، لم يبالوا كثيرا بظروف الحرب وآثروا قضاء أجازتهم في دفء مصر.

في قلب المطار..

وقف الشاب الثلاثيني يبحث في الوجوه المحيطة. يختلط سمعه بالكثير من اللغات التي ميز بعضها والبعض الآخر لم يستطع تمييزه.

يعدل من بدلته التي ضاقت عند منطقة البطن، يرفع نظارته ويقربها إلى عينيه. في توتر وارتباك.

دكتور عادل طبيب القلب والأوعية الدموية. رغم صغر سنه إلا أن عيادته في منطقة شبرا اكتسبت اسما وشهرة سريعة لبراعته ومعاملته الطيبة وانخفاض ثمن كشفه الطبي.

لم يمر على زواجه سوى عام واحد، ودع فيه والده دكتور توفيق أستاذ المصريات الذي سافر إلى إنجلترا مباشرة بعد فرح ابنه، نظرا لظروف عمله في الجامعة بلندن.

ظل عادل مأخوذا بأجواء المطار الحميمة، لم يكن من الأشخاص محبي السفر للخارج، في باطنه كان يعرف السبب لذلك وهو بغضه للحظات الوداع.

سمح لعينيه أن يتجولا في أنحاء صالة المطار ظنا منه أن ذلك سيسرق بعض الوقت ويخفف توتره وكراهيته للانتظار، جذب نظره طفلان صغيران وأمهما يودعان أبيهما.

رجل وامرأة من الواضح أنهما متزوجان حديثا، ويستعدان لقضاء شهر العسل في دولة ما؟!

وامرأة فاتنة تقف في ركن وحيدة بلا حقائب ترتدي فستانا قصيرا كشف عن ساقيها العاجيتين تنظر إلى طابور القادمين، بينما يقف بجانبها بعض العمال في المطار يختلسون النظر إلى هذا الجمال متظاهرين بالعمل، خمن عادل أنها ربما تنتظر شخصا ما.

تأمل لوحة الوصول مرات عديدة ليتفقدها، باحثا عن طائرة أبيه، فقد أقنعة عادل بالنزول إلى مصر وقضاء بعض الأيام معه هو وزوجته ياسمين بعد غياب عام كامل، دون أن يخبره عن السبب الحقيقي لدعوته.

دكتور توفيق سيصبح جدا للمرة الأولى، كانت ياسمين تقضى أولى الأيام في شهرها التاسع.

أراد عادل أن تكون هذه هي مفاجأته لأبيه، ورغم إلحاح زوجته عليه لإخبار والده منذ الشهور الأولى في الحمل إلا أنه انتظر التسعة أشهر كاملة ليخبره، كان السبب الذي يخبر به زوجته وحتى يقنع به نفسه أنه يريد مفاجأة والده في منزل طفولته، أما السبب الخفي الذي ظل ينكره رغم حقيقته أنه أراد أن يتم تأكيد الحمل حتى الشهر التاسع، لأن والده لن يتحمل خبر فقدان زوجته منى وحفيده الذي لم

يولد، فانتظر واطمأن على حمل ياسمين وصحة الطفل ليزف له الخبر السعيد.

وقف ينتظر ركاب الطائرة القادمة من لندن، يقرب نظارته من وجهه أكثر لينظر بوضوح، تلك الحركة التي اعتاد عليها مرتدو النظارات الطبية، حتى لمح أباه يحمل حقيبتي سفر، يشير إليه مبتسما.

كان دكتور توفيق ذا جسم رياضي، يلبس نظارة طبية تختفي وراءها عينان بنيتان، شعر أبيض خفيف، بشرة أصبحت بيضاء من قلة التعرض إلى الشمس.

يرتدي بلوفر خفيفا، ويحمل الجاكت بإحدى يديه، مع حذاء رياضي وبنطلون من الجينز.

من في مصر لا يعرف دكتور توفيق، رغم اختفائه المفاجئ بعد فاجعة زوجته، إلا أن اسمه ظل يتردد في الأوساط العلمية كثيرا لكثرة مؤلفاته وكتبه وأبحاثه في مجال الآثار المصرية.

فما من طالب علم في مصر لم يقرأ على الأقل كتابا له، وما من باحث في علم الآثار لم يستعن بكتبه كمرجع بحثي.

ظهر عدة مرات كضيف تليفزيوني يتحدث عن الحضارة المصرية، ويفسر كثيرا من الغموض المحيط بها.

لديه شغفه الجنوني الذي ساعده كثيرا في صنع اسم له احترامه، ولم يسرق هذا منه الجانب الآخر من حياته.. وهو الحب والزواج.

اعتاد أن يرى دكتورة منى كل يوم في الجامعة، كان ذكاؤها وقود لحب سقط فيه دون إنذار، تزوجا ولم ينجبا سوى عادل... رأى فيها والدته وزوجته وابنته.. وجد معها الحياة.

وبعد فقدانها أدرك أنه لن يستطيع الحياة في مكان تمتلئ جدرانه بذكرياتهما معا، ففعل ما كانت تتمناه زوجته دائما، زوج ابنه عادل واطمأن عليه ثم قبل بوظيفة مدرس جامعي في لندن لطالما رفضها قديما.. فقط هرب من ذكرياته وحنينه لزوجته.

يتمتع بشخصية قوية للغاية، وهادئة، يزن الكلمة كثيرا قبل أن تخرج من فمه، أبحر عميقا في العلم فأصبح يستطيع أن يثبت وجهة نظره دون أي جهد وبسبب ذلك اكتسب بعض الأعداء في الأوساط العلمية، إلا أن الصمت صار رفيقه بعد رحيل رفيقة عمره، فضل ترك كل شيء والسفر، لكن هذا لم يشفع له، فقد هوجم ببعض الشائعات عن وفاة زوجته ممن كرهوه في الجامعة أو خارجها..

عندما دعاه عادل لينزل إلى مصر، شعر وقتها دكتور توفيق أن ابنه يخفى شيئا وراء طلبه بالنزول غير أنه افتقده، لكنه لم يتردد في الموافقة.. أراد أن يطمئن عليه، وأن يتأكد بنفسه أنه على ما يرام في حياته وزواجه، خاصة بعد أخبار الحرب المتتالية في القنوات والجرائد البريطانية.

رفع عادل يديه إلى أبيه ملوحا له حتى يراه، فأومأ له أبوه برأسه وهو يبتسم، تخلص بسهولة من الازدحام أمامه واتجه إليه فاتحا كلتا زراعيه، ليحتضنه:

- افتقدك كثيرا يا عادل أنت وياسمين

- وأنا أيضا يا أبى

فابتسم دكتور توفيق مدفوعا بطمأنينة سرت داخله بعد رؤيته لابنه:

. دعنا أولا نتسلل خارجا من الازدحام

أومأ عادل برأسه موافقا وحمل حقائب أبيه، ليتجه للخارج لكن دكتور توفيق توقف قليلا وهو ينظر إلى الجمع كأنما لمح شخصا يعرفه!

توقف عادل مناديا أبيه:

. هل فقدت شيئا يا أبى؟

انتبه توفيق لكلمات ابنه، فأشار بيده بعلامة الرفض واتجه معه إلى الخارج.

- غبت طويلا يا أبى

- نعم لقد كان عاما طويلا، ولكن بما أنه أصبح لك ونيس في المنزل، ففيما ستحتاجني؟

نظر إليه عادل مستنكرا جملة أبيه:

. أطال الله في عمرك يا أبى، لا غنى لي عنك

وضع حقائب والده في الكرسي الخلفي للسيارة وجلس أمام المقود قبل أن يسأله أبوه:

. أين ياسمين، ولماذا لم تأت معك؟

أخذ نفسا عميقا قبل أن يكذب كذبته الأولى على أبيه:

. ياسمين منذ الأمس وهى في المطبخ، لقد أعدت كمية من الطعام تكفى لإطعام قرية صغيرة.

فتعالت ضحكات أبيه، قائلا له:

- حديثك أشعرني بالجوع، كم افتقدت طعامنا المصري الدسم

ضحك عادل قائلا:

. لقد قل وزنك كثيرا من طعام لندن، ولكن تأكد أن هذا الأسبوع الذي ستقضيه معنا سيزداد وزنك كثيرا، فلن تستطيع مقاومة طعامها الشهي

نظر توفيق إلى بطن ابنه التي برزت من جاكت بدلته:

. حسنا، أرى ذلك جليا في جاكت بدلتك الذي يقاوم كي لا ينفجر، أنت تعلم جيدا أن زيادة الوزن ضار يا دكتور

هز عادل رأسه مبتسما ومتجاوبا مع أبيه:

. سنرى يا أبى مدى مقاومتك لطعامنا المصري الشهي وخاصة عندما تكون ياسمين من أعدته لك

ضحك كلاهما، بينما أخرج توفيق كاميرا ضخمة من إحدى حقائبه، وبدأ بالتقاط بعض الصور للمارة في الشارع

عربة كارو تحمل عليها بعض ممن يرتدون الجلباب والعمم الصعيدية.

تهافت الناس على الركوب في الأتوبيس المكتظ.

بعض الأطفال ممن ارتدوا الملابس الرثة، ووقفوا عند الإشارات لاستجداء المال.

سائق تاكسي يرفع صوت كاسيت السيارة عاليا بأغان ليس لها معنى، مما انتشر من موضة الأغاني في ذلك الوقت.

لم تتغير القاهرة كثيرا منذ أن تركها، نفس الأوجه ذي الملامح المصرية، فكر دكتور توفيق أنه لم يغادرها بقلبه قط، ولولا ما حدث مع زوجته لما غادرها أبدا متحججا بالعمل.

مرت السيارة في طريقها من المطار إلى المعادى مرورا على قصر البارون ثم توقفت قليلا أمام إحدى الإشارات المرورية، وتعالى صوت نجاة الصغيرة من إحدى سيارات الأجرة بجانبه. كانت الفنانة "نجاة الصغيرة" أصدرت ألبوما في هذا العام باسم "أسهر وانشغل أنا" لم يكن ليفوت شراءه في حياة زوجته التي كانت تعشقها.

تعالى الصوت النشاز لسائق الأجرة العجوز بجانبه، وهو يضرب بكفه على عجلة القيادة ويغنى بانسجام تام مع الأغنية " أسهر وانشغل أنا وأنت ولا أنت هنا.... ظالمني معاك ومش بنساك شوف كام سنة شووووف كام سنة شووووف..."

تذكر محادثته مع زوجته دكتورة منى منذ ثلاث سنوات.

كانا عائدين من فرنسا في طريقهما من المطار للبيت عندما مارست زوجته عادتها التثقيفية لتتحداه في معلوماته:

- ماذا تعرف يا توفيق عن قصر البارون؟

- أعرف أنه مسكون بالأشباح يا منى وتاريخه مرعب

فابتسمت حينها منى ابتسامة النصر، لم يكن توفيق لينسى ابتسامة زوجته الساحرة، وأردفت:

- يا دكتور هذا الكلام يقوله المارة في الشارع إنما نحن رجال العلم، لنا لغة أخرى، وهى لغة العلم.

صورة لقصر البارون

رفع توفيق يديه معلنا استسلامه، مهما يقل لن يهزمها في معلوماتها، فأكملت حديثها بنظرة المنتصر:

- أنت تعلم بالطبع أن قصر البارون إمبان بنى على اسم صاحبه، لكن الإشاعات ظهرت عندما ماتت زوجة البارون في حادثة داخل القصر والناس أكدت أنها قتلت وهنا بدأت الأحداث الغامضة كلها.

فانتفض توفيق نفضة خفيفة ونظر إلى زوجته، التي لاحظت ما حدث، فقالت له ضاحكة ومداعبة:

- لا تخف أنا أتكلم عن زوجته وليست زوجتك

لكن ظلت نظرة الرعب على وجهه، وكأنما تذكر شيئا لا تعلمه زوجته التي استمرت في حديثها:

- المهم يا دكتور كثير من الناس قالوا إن زوجته قد قتلت بداخل الأسانسير، وأن ابنته "آن" رأت والدتها وهى تموت فأصيبت بحالة

نفسية وعندما كبرت بدأت تمارس هي وصديقة لها عبادة الشيطان في سراديب القصر، وفى نفس الوقت، قتل ست خادمات كانوا يعملون فيه منهم رئيسة الخدم التي قتلت في مصعد الطعام ورأسها انفصلت عن جسدها، حتى شقيق البارون إمبان نفسه قتل في سرداب من سراديبه وبعد كل حادثة كانت تحاول "آن" ابنة البارون الانتحار، وبسبب ذلك وجهت إليها أصابع الشك هي وأصدقائها بسبب الطقوس التي كانوا يمارسونها سرا في السراديب، حتى اليوم الذي نجحت فيه في قتل نفسها، بعدها أصيب البارون بحالة نفسية وغادر مصر إلى بلاده بلجيكا ليقضى بقية عمره

- نتيجة طبيعية لكل ما حدث فيه، أكملي

- بقية المعلومات أنت تعلمها وهى أن برج القصر بني على قاعدة دوارة يدور في كل الاتجاهات حتى يواجه الشمس، وهو الوحيد في العالم من نوعه الذي يدور أطلقوا عليه اسم القصر الذي لا تغيب عنه الشمس

فأومأ توفيق برأسه معجبا بسير الحديث مكملا:

- وفى رواية أخرى يا زوجتي العزيزة أن كل الحوادث التي حدثت في القصر سببها الغرفة الوردية التي كانت تخص زوجة البارون ومنع أي شخص من الدخول إليها، أيضا في رواية مختلفة تقول إن تلك حوادث بدأت عندما سقطت شقيقة البارون "البارونة هيلانة" من البرج أثناء دورانه وقتلت في وقتها

عندها نظرت دكتورة منى إلى نافذة السيارة واستطردت:

- ما يعجبني فعلا يا توفيق في هذا القصر أنه عندما صممه إلكسندر مارسيل جمع ما بين أسلوب فنون عصر النهضة في تماثيل القصر الخارجية، والفن الهندي ذي الطابع الإسلامي في القصر من

الداخل، فالقصر عبارة عن مجموعة من التناقضات الفنية التي انسجمت في كتلة واحدة

تعجب توفيق من نبرة صوتها التي تغيرت، فاستفسر:

- طبيعي يا دكتورة، هناك الكثير من الأمثلة على دمج كثير من الحضارات المختلفة في مبنى واحد فمثلا...

لكنها قاطعته بنبرة حزينة بدت واضحة في صوتها:

- أنا أعلم جيدا ما تنوي قوله، لكن أنت لم تفهمني، أنا أقصد أن القصر يشبه شخصية الإنسان، لأنه مزج بين عصور وفنون متضادة ومختلفة، الإنسان بداخله شخصيات كثيرة، وغالبا الذي يظهر للناس من الخارج يختلف تماما عن الذي يخفيه داخلة!! أحيانا نظن أنفسنا أننا نعرف الذين نحبهم ولكننا في النهاية نصدم بأننا لا نعرفهم!!

فارتبك حينها توفيق، وآثر الصمت طيلة الطريق.

نظر إليه عادل وقد ضاقت عيناه وارتسمت على وجهه بعض ملامح الحيرة التي حاول إخفاءها متسائلا:

. أين سرحت يا أبي؟

تنهد بحزن متجنبا النظر إلى ابنه:

- لا مكان، كنت أتأمل الطريق والمارة

ثم رفع كاميرته الضخمة إلى عينيه وبدأ في تصوير الشوارع، وأكمل حديثه لابنه:

. صدقني لقد افتقدت مصر وكل ما فيها، سآخذ تلك الصور معي، حتى عندما أسافر وعندما افتقدها سوف أجد ما يصبر وحشتي لها

نظر عادل إلى والده حزينا:

. كفاك غربة يا أبى، وتعال عش هنا وأكمل تدريسك في مصر

أما دكتور توفيق فكان رده سريعا وعفويا:

. أنا حقا لا استطيع تخيل الحياة هنا بعد والدتك رحمها الله، كل شارع وزقاق يذكرني بها، في كل مكان هنا زرعنا لنا ذكريات أصبحت الآن أشجارا مورقة، من الصعب ألا أراها

صمت عادل كثيرا وهو يقاوم دموعه التي تقاتل لتنزل من عينيه، كان يعلم من البداية أن زيارة والده ستضع ثقلا نفسيا عليه.. وتعيد إلى ذهنه ذكريات وأسئلة خبأها وأخفاها حتى عن زوجته ياسمين مراعاة لمشاعر والده المحطمة. لذلك قرر تغيير الموضوع تماما حتى لا ينزلق مع والده إلى موضوع يتحاشى مناقشته، فقفز إلى ذهنه موضوع رحلة الأقصر، كان الطريق مازال طويلا، فرأى أنه من المناسب أن يفاتح والده بموضوعها:

. بالمناسبة ياسمين حجزت لنا رحلة للأقصر وأسوان لأربعة أيام، وهى تأمل أن تستغلك لتشرح لها كل الأماكن التي سنزورها

ابتسم دكتور توفيق وأراح ظهره على مقعد السيارة وهو يفرك عينيه كأنما يستعيد بعض الصور من ذاكرته عن تلك المدن الساحرة

. يااااه... مرت فترة طويلة منذ أن زرتهم.. الأقصر وأسوان في هذا الوقت من العام لا حدود لجمالهما

. سيكون وقتا جميلا لنمضيه معا.. كما يمكنك أن تحمل معك آلة التصوير لتصور بها هناك

رفع دكتور توفيق حاجبيه وهز رأسه بالإيجاب مستحسنا الفكرة:

. هذا ما سأفعله بالضبط

إلا أنه كان يكذب كذبته الثانية على أبيه، فقد اختار الذهاب إلى تلك الرحلة لأنه يعلم تماما أنه لا يستطيع قضاء تلك الإجازة في المنزل مع والده، بينما كل ركن فيه يذكره بوالدته. هو يدرك كم كان والده يحب والدته، و كم كان موتها مدمرا له.

هذا السبب الرئيسي في تفضيله الحياة في لندن بعد زواج ابنه والاطمئنان عليه.

هربا من الذكريات والأماكن التي تأخذنا بالزمن إلى الوراء، لتعيد في أذهاننا مشاهد الأحباء مرارا ومرارا.

وصلت السيارة إلى إحدى فيلات المعادى الصغيرة، قبل أن يطل رجل خمسيني ذو بشرة سمراء وجلباب صعيدي أمام البوابة ويفتحها، وهو يلوح بيده مرحبا، وصاح بلهجة صعيدية:

. دكتور توفيق يا مرحب يا دكتور.. طالت غيبتك

. عم حنفي كيف حالك، كم افتقدتك يا أطيب رجل

كان عم حنفي أكثر ممن استمروا في العمل لدى دكتور توفيق، فهو يعمل لديه منذ ما يزيد على عشرين عاما.

حمل الكثير في ذاكرته لهذا المنزل الذي اعتاد أن يكون ممتلئا بالحيوية والسعادة، التي كانت تصنعها دكتورة منى زوجة دكتور توفيق.

لم يصدق عم حنفي عندما تلقى خبر وفاتها، لم يصدق أن تلك المرأة التي ملأت هذا المنزل حيوية وروحا وسعادة قد رحلت إلى النهاية فجأة.

كان يعمل معظم أيام الأسبوع في الفيلا، ويسافر إلى قرية صغيرة في المنيا يومين ليعود مرة أخرى إلى عمله.

حتى وفاتها، قرر حنفي الحياة بصورة دائمة في القاهرة، ليساعد توفيق وابنه عادل في أعمال البيت وشراء طلباته وقضاء حاجاتهما.

ركن عادل السيارة، وسلم الحقائب إلى حنفي، قبل أن يقول له:

- عم حنفي.. من فضلك ادخل الحقائب إلى المنزل، وأخبر ياسمين أننا عدنا

ثم بادره دكتور توفيق بالسلام قبل أن يقول له:

. اشتريت لك قطعة من الصوف الإنجليزي الفاخر يا عم حنفي

فهتف حنفي في فرح وابتسامة زادت من كرمشات وجهه العجوز:

. ألف شكر يا دكتور

دخل إلى البيت، بينما انشغل دكتور توفيق بتفقد بعض النباتات والأشجار في الحديقة الصغيرة للفيلا.

لقد ذبلت النباتات بعد وفاة زوجته، رغم محاولات حنفي الاهتمام بها، ومات معظمها.

إلا أن عادت فيها الحياة مرة أخرى.

نظر إليها وتذكر زوجته صباح كل يوم ترويها وتقلمها وهى تستمع لشادية وفيروز تتغنى معهما، ترتسم على وجهها ابتسامة، لم تكن أياما جميلة وحسب بل كانت الحياة كلها.

كان عادل بالطبع قد خمن ما جال بخاطر والده، فحاول انتزاعه عن ذكرياته:

. ياسمين هي من تعتني بهم، ترويهم كل يوم

التفت إليه أبوه قائلا وهو يفرك بعض الطين بين أنامله:

. النبات يحتاج للعناية ويشعر بالحب كما يشعر بالمياه التي تروى جذوره.

فألقى الطين من يده، وهو يعض شفتيه مقاوما دمعتين يقاتلان جفنيه لينزلا.

كانت زوجته هي من تردد دائما تلك الجملة، عندما كان يعلق على قضائها وقتا طويلا في العناية بالحديقة.

تنفس نفسا عميقا أدخل به جرعة كبيرة من الهواء إلى رئتيه كأنما يحاول احتضانه، يبحث عن رائحة زوجته بين ذراته، لم يخطر بباله يوما أن تحيا تلك الأشجار أكثر من حياة زوجته.

مرت دقيقة صمت قبل أن يعود بذاكرته إلى الوقت الحاضر، التفت إلى ابنه وحوط زراعه حول رقبته ليقتل دقائق الصمت والوجوم ببعض الفكاهة:

. المهم... أين الطعام الذي يكفى قرية صغيرة؟

دلف الاثنان إلى البيت، وأراح دكتور توفيق جسده المرهق على إحدى كراسي الصالون الكبيرة التي اكتست بكسوة بيضاء يتخللها ورود صغيرة حمراء وأوراق خضراء.

ينظر إلى الحوائط التي اكتست بورق ذي أشكال هندسية، وبعض التماثيل التي تراصت على المناضد الصغيرة.

احتار أنفه بسبب كثرة روائح الأطعمة التي انتشرت في المنزل، تنهد مدركا حقيقة أنه افتقد البيت والروح التي تملأه.

كان البيت كما تركه، احتفظ عادل بكل شيء فيه، تخليدا لذكرى والدته، حتى عندما تزوج لم يشتر سوى غرفة نوم بدلها بغرفته

القديمة وأضاف بعض الديكورات التي تصبغ لمسة عصرية في الطرقات.

تأمل أرجاء المنزل فرأى الجرامافون الذي اعتادت زوجته أن تستمع فيه إلى البومات نجاة الصغيرة، وتتغنى معها.

وإلى جانبه كاسيت قديم، كان قد اشتراه لها في عيد ميلادها لتستمع إلى الراديو وشرائط الكاسيت في نفس الجهاز.

أغمض عينيه، وأراح رسغيه على جانبي الكرسي متداركا أحداث الماضي المبهجة والمؤلمة في نفس الوقت!!

كيف يذكرنا الجماد بأشخاص وأحداث، ويجعلنا متعطشين لإعادة تلك الحياة ونحن نعرف تمام المعرفة أنها لن تعود مرة أخرى.

دخل عادل ومن خلفه ياسمين التي بدا بطنها منتفخا للغاية، ومالت بسببه إلى الخلف، انسدل شعرها الطويل على كتفيها وجهتها، بدت مصفرة الوجه، منتفخة العينين وعلامات الإرهاق واضحة عليها.

كان عادل قد رأى ياسمين لأول مرة في الجامعة، كانت هي في سنتها الجامعية الثالثة في كلية الآداب، وهو أوشك على الانتهاء من سنة الامتياز في كلية الطب.

يومها أوقفته في الحرم الجامعي لتعطيه دعوة لمسرحية شكسبير الشهيرة "حلم ليلة صيف" التي تقدمها هي وأصدقاؤها على مسرح الجامعة.

تبادل كلاهما أطراف الحديث وتعارفا في نصف ساعة، فقد وقع عادل في الحب من النظرة الأولى، ولأول مرة يرتبك بسبب تحدثه إلى فتاة!!

وهو الذي لم يفهم إطلاقا ما المخجل أن يتكلم شاب مع فتاة..

حينها أدرك أن ياسمين هي حب حياته وشريكة عمره.

رآها دكتور توفيق قفز من على كرسيه رافعا حاجبيه، وفاتحا فمه من الدهشة، متناسيا كل ما جاش بفكره من ذكريات.

ابتسم في ذهول وهو يصيح:

. ياسمين أنت حامل

سلمت ياسمين على دكتور توفيق، ثم جلست ببطئ على إحدى كراسي الصالون وهى تعض شفتيها من آلام ظهرها قبل أن تقول له:

. صمم عادل أن تكون مفاجأة لك، رفض تماما أن نخبرك في التليفون.

نظر إلى ابنه معاتبا ومستنكرا:

. كل تلك الرسائل والمكالمات، ولم تخبرني يا عادل.

• أنا صممت أن تعود لمصر وترى بنفسك ياسمين، ومن المحتمل أن تحضر الولادة، فياسمين في شهرها التاسع.

أسرع دكتور توفيق وفتح إحدى حقائبه مخرجا كاميرته الضخمة، وناولها إلى ابنه:

. خذ لي معها الكثير من الصور، ستكون ذكرى موثقة بالكاميرا للحفيد القادم.

الفصل الثاني

دقت الساعة الكبيرة المعلقة في صالة المنزل لتعلن الخامسة عصرا بينما تأرجح بندولها يمينا ويسارا بانتظام، حيث جلس ثلاثتهم على منضدة في شرفة الدور الثاني يشربون الشاي، ويتناقشون في أمور البلد، يتجادلون في أمور سياسية تتعلق بالحرب، ويرتبون للرحلة الأقصر.

كان دكتور توفيق يشاركهم في النقاش أحيانا، لكن غالبا ما كان يسكت ويتأمل الشارع الهادئ والمارة تاركا نفسه تغوص في ذكرياته القديمة.

كانت تجتذبه ذكريات زوجته كثيرا، تعود أن يجلس يوميا معها في تلك الشرفة ليتناول شاي الساعة الخامسة، ذلك الطقس المقدس لعائلته.

تذكر تحديدا الجدال الذي دار بينه وبين زوجته يوم عودتهم من باريس، بينما كانت منى تصب الشاي بضيق:

. ما بك يا منى، منذ حديثك عن قصر البارون في طريق عودتنا.. وأنت لست كعادتك معي؟

تركت أبريق الشاي على المنضدة وجلست بهدوء على كرسيها وهى تنظر إلى عينيه مباشرة:

. لقد رأيتك معها يا توفيق؟

فأمال توفيق رأسه إلى الأمام ليترك كوب الشاي، ويعتدل في جلسته:

. الامر ليس كما تظنين

. لقد كذبت على، لم تفعلها منذ زواجنا؟

. أنت لا تعلمين ما يحدث حقا، ولا تقدرين الخطر؟

. وهل هذا يبرر كذبك وعلاقتك بها؟

. أنا لست على علاقة بها، أنت تعرفين أني أحبك أنت

. أنا حقا أصبحت غير متأكدة من شيء

لم يقطع بانوراما ذكرياته سوى رنين الهاتف.

تكفل عادل بالرد، كان على الجهة الأخرى رجل يتحدث الإنجليزية بلكنة بريطانية، ففهم أن تلك المكالمة تخص أبيه، فأشار له بيده، تحرك دكتور توفيق من كرسيه متجها إلى المنضدة الصغيرة التي تحمل الهاتف متمنيا إلا يكون نداء العمل.

تناول السماعة من يد ابنه ليرد.

وعاد عادل وجلس على كرسي بجانب ياسمين تاركا والده يتحدث بحرية، ومال برأسه اتجاهها وهو يهمس:

. ياسمين.. هل أنت حقا مستعدة للسفر رغم ما بك من إرهاق... صدقيني لن أتضايق إذا أردت إلغاءها... ما يهمني حقا أنت وطفلي

أخذت شهيقا طويلا، وهى تداعب إحدى الحليات المتدلية من ثوبها بيديها:

. أنا بخير، أشعر بألم في ظهري.. اعتدت عليه.. كل ما أتمناه أن نخرج معا قبل أن ينشغل وقتي بالمولود القادم

. سنتحرك كثيرا ونمشى لمسافات.. أخاف أن يحدث لك مضاعفات بسبب ذلك.

. الحركة جيدة لي.. هذا ما أخبرني به الدكتور!

ورفعت عينيها مباشرة لتنظر إليه.. ثم عضت شفتيها لتقاوم ركلة قوية من ركلات الجنين، تنهدت ببطء وهى تهمس لزوجها:

. عادل.... تلك الرحلة ليست لى أنا.. أنها مهمة لوالدك أيضا

هز رأسه في ضيق موافقا، كان يعرف أن زوجته على حق، فعدل من نظارته قائلا:

. عندك حق، لن نستطيع قضاء كل الإجازة في الفيلا. أنا أعرف ما يدور بخلد والدي، أنه يتعذب بذكريات تربطه هنا بوالدتي

وفى تلك الأثناء كان توفيق يستمع باهتمام إلى رفيقه دكتور ديفيد.

دكتور ديفيد ويليامز من متيمي الحضارة المصرية، ما أن تعرف على دكتور توفيق واكتشف أنه مصري حتى أصبح أقرب أصدقائه وأمين سره.

بعض من أساتذة الكلية كانوا يطلقون عليه لقب

"المجنون" أو "ماد ديفيد" بسبب كثرة دراساته، كان يقضى أوقاتا طويلة مع دكتور توفيق في التحدث ومناقشة موضوعات أطروحاته العلمية دون ملل أو راحة.

ودكتور توفيق يكن له الكثير من الاحترام، يستمع إليه في كل شيء معقبا على بعض الآراء التي يظهرها في أبحاثه.

كان ويليامز يتحدث بإثارة لم يعهدها منه توفيق من قبل، استمع إليه بانتباه شديد، وبعد أن أنهيا المكالمة أتجه إلى عادل، الذي أنتبه أن والده أنهى حديثة الهاتفي، ألقى نظرة متشككة إلى والده، أملاً ألا يخبره بأنه يريد العودة إلى لندن:

. هل هناك مشكلة يا أبى؟

هز توفيق رأسه بالنفى:

. لا أبدا، ده دكتور ديفيد صديق من الجامعة، سيأتي إلى الأقصر، لينتهز فرصة وجودي في مصر

شعر عادل بعدم الارتياح، قبل أن يسأل والده:

. عمل أم استجمام، لأننا نريد قضاء تلك الإجازة بكاملها معك.

نظر إليه مبتسما ليطمئنه:

. موضوع بحثه في معبد دندرة، سيقيم في القاهرة يومين، ليسافر بعدها إلى الأقصر ثم إلى قنا، لكن أنا مصمم أن تلك الإجازة بكاملها لكم.... إذا احتاج مساعدة سوف أساعده.. الموضوع لن يطيل كثيرا كما تعتقد.

تنفس عادل بارتياح، قبل أن يخبره أبوه:

. المهم هل مازال جهاز الفاكس يعمل أم معطلا؟ أريد استلام بعض الأوراق الهامة.

تبادل عادل نظرات قلقة مع زوجته، فقد كان دخوله مكتبه القديم مجددا يعنى ذكرياته وصوره القديمة فتداركت ياسمين الموقف سريعا:

. إنه يعمل يا عمى، ستجده في مكتبك كما تركته... أنا لم أغير شيئا منذ يوم أن غادرت.

هز دكتور توفيق رأسه في صمت، واتجه إلى مكتبه بالطابق الأول.

وما أن فتح الباب حتى وصلت إلى أنفه رائحة عبقة مميزة جلبت معها كثيرا من ذكريات عمله ودراساته.

كان المكتب كما تركه أثريا وعتيقا في كل شيء، فيما عدا أنه بدا نظيفا ومرتبا.

تراصت الكتب والموسوعات على الرفوف في اليمين، كانت المكتبة مزدحمة للغاية، وقد بدا على بعض كتبها القدم الشديد.

أما الباقي فقد وضع بعضها في صناديق ورقية والبعض الآخر تراص على هيئة أبراج على أرضية الغرفة.

وعلى اليسار كرسي كبير وإلى جانبه مصباح، اعتاد أن يجلس هنا ليقرأ كتبه.

وخزانة صغيرة، وضعت ياسمين عليها مفرشا ومزهرية صغيرة.

بعض الصور القديمة، وهو يرتدى بنطالا قصيرا وأدوات الترميم وسط أكوام من القطع المعدنية والخشبية، لقد كان شابا وقتها.

لم يكن يكتفي بشراء أدوات الترميم، بل كان يقوم بتصميم وتشكيل بعضها.

بالإضافة إلى صندوق خشبي كبير، من كثرة محتوياته الغريبة، والأوراق والتحف لم يعد يتذكر ماذا وضع فيه.

ومكتبه الخشبي الذي يتوسط الغرفة، تكسرت أطرافه الصغيرة من كثرة الاستخدام، مع الكثير من الخربشات وبقع الطلاء المتساقط، تذكر حينها كم مرة طلبت منه زوجته تغييره إلا أنه أصر أن تلك العلامات هي دليل على الأصالة والقدم.

جلس على كرسي الغرفة الذي أصدر صريرا مكتوما يتأمل صورته هو وزوجته وابنه عادل الذي كان صغيرا شديد النحافة في تلك الصورة.

إلى جانبها مقلمة تراصت فيها أقلام قليلة.

وبعض الملفات الورقية القديمة.

والكثير من البقع المتناثرة على الأدراج والخشب من كثرة الاستخدام.

لم يتغير شيء سوى أن المكتب أصبح نظيفا ومرتبا.

فتح جهاز الفاكس قبل أن يهيم في ذكرياته مع زوجته مرة أخرى لأنه أصبح له موضوع محبب ومؤلم في الوقت نفسه، مزيج من المشاعر المختلطة أصبحت عسيرة الترجمة عليه، لكنه اتخذ قرارا إلا يفسد تلك الإجازة التي ربما يحضر فيها ولادة أول حفيد له، وقرر الاستمتاع بها مع عائلته الصغيرة، وتسجيل كل لحظة بكاميرته.

مر بعض الوقت قبل أن ينتهي من استلام كل الأوراق، حاول قراءتها لم يستطع، الحروف بدت متداخلة غير مفهومة، تنهد بحسرة لقد نسى نظارة القراءة الخاصة به في غرفته، جالت في رأسه صورته وهو شاب كان يستطيع تسلق جبل ومحاربة ثعبان ضخم هجم عليه في مدخل إحدى المقابر القديمة، والآن لا يستطيع قراءة بعض الأحرف دون نظارته الطبية.

يا للزمن اللعين!!

رتب أوراقه ووضعها في حافظة من الورق القديم الملقى في أحد الأدراج، وكتب عليها من الأمام

"دكتور ديفيد ويليامز"

اتجه مسرعا إلى باب المكتب ليكمل حديثه مع ابنه وقبل أن يطفئ النور نظر نظرة أخيرة إلى الغرفة وأغلق الباب.

الفصل الثالث

المكان: غير معروف

الزمان: متوقف

فتاة ترتدي ثوبا أبيض من الكتان زينت ياقته بدوائر ذهبية داخلها أشكال هندسية صغيرة، حول وسطها حزام ذهبي اللون يتدلى في منتصفه ما يشبه الكرافات في يومنا، انسدل على كتفيها شعر أسود قسم على هيئة ضفائر رفيعة، أنف صغير وعينان حادتان رسمتا بكحل ثقيل ينتهي بطرف مستدق، وعلى رأسها تاج صغير مستدير مذهب.

كانت الفتاة أيقونة للجمال رغم ملامحها الصارمة إلا أنها سارت بخطوات ثابتة سريعة، مع وجه مليء بالغضب!!

اتجهت في ممر طويل فرشت أرضيته بالسجاد القرمزي، يرتفع جانبي الممر إلى السماء دون سقف يغطيه.

دقت ثلاث دقات على باب في نهاية الممر.

ثم فتحت باب خشبي ضخم ودخلت إلى غرفة شاسعة دون سقف أيضا، رسمت أرضيتها بالعديد من الأشكال الهندسية المتداخلة، وعلقت على جدران الغرفة الشاسعة الكثير من الصور والبورتريهات لنفس الشخص بملابس مختلفة تنتمي لعصور متعددة، وأسفلها مشاعل من النار تلقى بظلها على تلك الصور والبورتريهات، في مشهد غامض ومخيف!!

تجعل من الغبي أن يكون في يقين من نرجسية وغرور ذلك الشخص في تلك الصور..

وفى نهاية الغرفة، ترى مكتبا رائعا من خشب الأبنوس، زين المكتب بنقوش نباتية وأزهار ترتفع عن حواف المكتب، لتنفصل عنه وتتدلى بجانب المكتب بشكل مبهر.

ومن دقة وجمال المشهد يستطيع أي إنسان أن يقول إنها غرفة ومكتب يعودان للعصر الفرعوني!

خلف المكتب يجلس ذلك الرجل العجوز، رسم الزمن على وجهه أكثر مما رسم من لوحات على جدران مكتبه.

عيناه الدقيقتان تشع من الذكاء والدهاء قرونا من التعلم والتصرف في مختلف الأمور.

كحل عيناه بالكحل الثقيل، ينتهي بطرف في نهاية العين.

حليق الرأس تماما.

ملأت التجاعيد كل مكان في جبهته ووجنتيه، لترسم خبرات كثيرة مر بها في عقود.

جلس وهو منتصب الظهر على كرسي كبير ارتفع الكرسي إلى السماء حتى بدا الرجل العجوز صغير الحجم على الكرسي، يمسك بيده عصا ذهبية تنتهي برأس ثعبان زينت عيناه بحجرين من الألماس شديد اللمعان.

انحنت الفتاة رافعة إحدى يديها لتضمها إلى صدرها وأحنت رأسها في احترام، وبادرت بالحديث:

. سيدي، دكتور آخر بدا في البحث عن معبد دندرة وصل ليده ملفات قديمة اعتقدنا أنها ماتت مع صاحبها منذ عقود.

نظر الرجل العجوز نظرة متشددة، وعقد حاجبيه حتى ازدادت تجاعيد وجهه كثيرا.

ثم قال بصوت مرتفع:

•ليكتارا!!!

فاهتزت الفتاة من الخوف عندما نطق باسمها في غضب، بينما أكمل العجوز حديثه:

. لقد اعتقدت أنني انتهيت من تلك المشكلة منذ زمن

تكلمت الفتاة بتوتر واضح دون أن ترفع وجهها:

. لقد أعاد البحث دكتور في المصريات بلندن بعد أن حصل على نسخة من تلك الملفات

ضرب الرجل العجوز عصاته بعصبية على الأرض، فأصدرت صوتا عاليا كصوت انفجار قنبلة واهتزت الأرض أسفل الفتاة فتراجعت الفتاة خوفا.

. ألم تخبريني أن كل الأوراق غرقت معه في المحيط، هذا إهمال كبير منك

بدا على الفتاة الارتباك، ولزمت الصمت، والرجل ينظر إليها في ترقب:

. وماذا أيضا؟ اخبريني بكل ما لديك؟

ازدردت الفتاة لعابها بتوتر، قائلة:

. لقد أخبر دكتور توفيق وهو في طريقه إلى القاهرة

زمجر الرجل بطريقة وحشية، فتراجعت الفتاة في رعب:

. توفيق.. ألم يتعلم درسه بعد؟ أم أنه افتقد زوجته فيريد اللحاق بها؟

. سيدي سأتخلص منه كما تخلصت ممن سبقوه

فتكلم الرجل العجوز بصوت كالفحيح:

. تلك المرة لا أريد أي أخطاء

الفصل الرابع

الأقصر هنا نشأت أعظم حضارة في الإنسانية، جعلوا المعجزات واقعا معاشا، وبجلوا الإنسانية أكثر مما نبجلها نحن اليوم.

الجو دافئ كثيرا عن القاهرة والشمس دائمة الإشراق.

تختال الأجسام نسمة ربيعية في الشتاء تنعش الأبدان.

الوجه الحسن للجمال.

ومياه النيل تتراقص تحت ضوء الشمس بلون ذهبي يعكس أشعتها

ارتفع الأسانسير للدور الثالث في الفندق الفخم المطل على النيل، قال عادل لوالده:

. سنرتاح نصف ساعة لأجل ياسمين، ثم نتجول في المدينة

. بالطبع كما تريدون.. المهم راحة ياسمين وحفيدي ووريثي

ثم غمز دكتور توفيق إلى ابنه

ابتسمت ياسمين وهى تربت على بطنها بحركة لا إرادية اعتادت أن تفعلها الحوامل قائلة لهم:

. أنا بخير.. لم أشعر بالطريق.. سأرتاح قليلا ونبدأ بعدها جولتنا

دلف كل منهم إلى غرفته، كانت الغرف نظيفة ومرتبة، لكن توفيق لا يهتم سوى بالشرفة، والمنظر المطلة عليه، فأسرع إلى الستائر وأزاحها وفتح الشرفة الزجاجية، قبل أن يدرك أنه فتح شرفة على الجنة.

النيل خرافي الجمال، يحمل على مياهه مراكب نيلية ازدحمت بالبشر وتلونت بألوان زاهية، لا عجب أن المصريين قدسوا النيل، لقد كانوا ينظرون إلى هذا الجمال كل يوم.

أراح ظهره على السرير عشر دقائق، ثم رفع السماعة ليتصل برفيقه في العلم دكتور ديفيد، ليسمع صوت عامل ريسبشن فندق القاهرة.

. صباح الخير.. إذا سمحت أريد محادثة دكتور ديفيد وليامز.. مقيم في غرفة 56

. لحظة معي من فضلك.. للأسف لم يصل ليستلم غرفته.

. لكنة من المفترض أن يكون قد وصل منذ أربع ساعات.

. هل من الممكن أن تنتظر معي بضع ثوان أتأكد من الحجز... دكتور ديفيد ويليامز إنجليزي الجنسية.

. بالضبط

. لا يا فندم للأسف لم يصل حتى الآن

. هل تعلم متى ستصل طيارة لندن؟

مرت لحظة من الصمت، جعلت قلبه يتأكد من أن شيئا خاطئا قد حدث، لا يمكن أن يلغى ديفيد رحلته إلا لأسباب عظيمة، فهو يعلم تماما تصميمه على إنهاء بحثه في معبد دندرة.

ثم عاتب نفسه لعدم قراءته الأوراق التي أرسلها إليه عن طريق الفاكس.

قاطع عامل الريسبشن أفكاره بغتة:

. للأسف يا فندم هناك أخبار غير جيدة، فالطائرة مفقودة إلى الآن، ولا أخبار عنها.

فانتفض من مكانه، وعدل من جلسته ليقول له

. كيف؟ ماذا حدث؟

. للأسف، لا أعلم كل التفاصيل، لكنك تستطيع الاتصال باستعلامات مطار القاهرة

أنهى المكالمة سريعا قافزا من الفراش إلى التليفزيون، وهو يحبس أنفاسه فتحه وراح يقلب في قنوات متعددة اللغات حتى استقر على قناة إنجليزية.

كان العنوان عريضا على الشاشة (سقوط الطائرة المتجهة من لندن إلى القاهرة في البحر المتوسط ولا أنباء عن ناجين حتى الآن)

كان هذا الخبر كفيلا، أن يقلب يومه رأسا على عقب

هجمت الأفكار على عقلة هجوم الذئاب على فريستها بعد جوع طويل. وراح يتخبط في الغرفة يمينا ويسارا. حتى هداه تفكيره وجلس إلى التليفون ليطلب مكالمة دولية إلى لندن.

كان على الخط الآخر صوت نسائي مختلط بالبكاء، دكتورة "إليزابيث"، ظلت تنتحب وتبكي وهى تحكي كيف ودعت ديفيد في المطار، وكيف أنها لا تصدق أنه كان الوداع الأخير.

أنهى المكالمة ووضع سماعة الهاتف بتثاقل وجلس منهكا على السرير.

لقد عاش تلك المشاعر من قبل مع زوجته، وها هي تتكرر مرة أخرى في وقت حرج، كان يتمنى أن يستمتع بكل ثانية فيه.

ما الذي كان يبحث فيه دكتور ديفيد؟

هل يمكن أن يكون ما حدث مقصودا؟

هز رأسه بشدة لكي ينفض تلك الأفكار عنه، أية لعنة من الممكن أن تسقط طائرة كاملة وتقتل كل من فيها.

هذا مستحيل!!

لكن الأحداث الغريبة واللعنات التي سمع عنها، بدأت في التراص في عقله في نقاط متتالية.

سفينة تيتانك التي حملت مومياء الأميرة "اين رع"، فقد ذكر في مقبرتها أنها ستصيب بالنحس كل من يحاول إزعاجها.

وما أن صعدت على ظهر السفينة التي لا تغرق، غرقت في مياه المحيط وقتلت المئات معها.

حتى أن الواشنطن بوست طالبت بتوقف البحث عن حطام السفينة عام 1980 خوفا من لعنة المومياء!!

لقد قرأ قصتها في ورقة بحثية أهداها له ديفيد الذي كان يؤمن بقوة بنظرية اللعنات! ما أن يبدأ البحث في كثير من تلك الأمور حتى تتراص الجثث بطريقة غير منطقية.

ربما بحث ديفيد في شيء لا يجب البحث فيه.

لم يخبره بكل التفاصيل لكنه أرسل أوراق بحثه له، هذا ما سيحدد ماذا حدث بالضبط.

ربما بحث في شيء يتعلق بمن قتل زوجته، وربما كان ما حدث محض صدفة.

إلا أن ذلك النداء الداخلي كان يصرخ فيه متحديا ومكذبا فرضية الصدفة، فاختار تجاهله عمدا.

لكن عقلة تمرد عليه ورفض الصمت وعاد ليسأله هل كان ما قتله هو نفس ما قتل زوجته فقد أصبح مريضا بالشك منذ وفاتها.

ضاقت حدقتاه ليجمع الأحداث معا.

لابد أن موضوع بحث دكتور ديفيد كان خطيرا للغاية وسيكشف سرا من أسراره لذلك قرر التخلص منه.

اضطرب بشدة وقلبه يكاد يقفز خارج قفصه الصدري من شدة ارتفاع ضغط دمه.

فاتجه مسرعا إلى الشرفة ليلتقط أنفاسه، ويهدئ من نفسه قليلا...

في كل الأحوال لقد رحل صديقه إلى الأبد.

كم أن الحياة قصيرة.

تباطأت الدقائق كالساعات قبل أن يطرق عادل الباب ويدخل إلى والده ليجده على السرير في حالة يرثى لها. حمل كرسيا صغيرا وضعه بجانب السرير:

. ماذا حدث يا أبى؟ لا تبدو بخير؟

رفع توفيق وجهه ونظر إلى وجه ابنه ويقول وهو يهز يده بعصبية:

. لقد سقطت طائرة ديفيد ولا ناجين.

تدلى فم عادل لأسفل من الصدمة، قبل أن يلتفت إلى التليفزيون الذي كان يضج بأخبار الطائرة

مرت فترة من الصمت قبل أن يستدرك الأمر فالتفت إلى والده محاولا التخفيف من وقع الصدمة عليه:

• اهدأ يا أبى.. هذا قدره ولا إرادة لنا فيه.. سأخبر ياسمين أننا سنرتاح اليوم.. لا داع للنزول.

هز دكتور توفيق رأسه رافضا:

. لا داع لذلك... أنا سأذهب معكم.. من الممكن أن أعود في أي وقت إلى لندن.. أريد استغلال كل الوقت لأكون معكم.

ولم يمهل ابنه الوقت للتعليق على قراره، سحب كاميرته الضخمة وحقيبة صغيرة لمتعلقاته، وأطفأ أنوار الغرفة، ثم خرج الاثنان معا وأغلق الباب، وسط ذهول عادل وارتباكه لتصرف أبيه.

الفصل الخامس

كان يوما مشمسا ودافئا، يختلف كليا عن طقس القاهرة، متعة ما بعدها متعة، خاصة لياسمين.

تلك هي أولى زياراتها إلى الأقصر، أما زوجها فقد زار الأقصر كثيرا في صغره مع أبيه وأمة.

انبهرت كثيرا بمعبد حتشبسوت الذي حفر في قلب الجبل كلوحة خيالية جعلتها أنامل الأجداد حقيقة، تسلقت المعبد حتى نهايته إلى أن وصلت إلى قدس الأقداس لترى كل ركن فيه متجاهلة نصيحة زوجها لها، لأن المعبد يتطلب الكثير من الجهد لصعوده نظرا لكثرة السلالم.

ثم زاروا جميعا معبد الكرنك، ورأت البحيرة المقدسة، ولم تمل من سؤال حماها على كل شيء، منبهرة بالتفاصيل التي تسمعها، مستغلة ذلك في تشتيت انتباهه عما حدث معه صباحا.

معبد الأقصر هو محطتهم الأخيرة، وبعدها سيعود الجميع إلى الفندق للراحة وتناول الغداء.

لكن تكتب الأقدار كتابا مخالفا لنواياهم.

والمصير يسطر سطورا أخرى مغايرة لكل توقعاتهم.

يحمل المستقبل الكثير من المفاجآت لدكتور توفيق وعائلته، وتلك الحفيدة القادمة.

كانت ياسمين قد بدأت بالفعل في الشعور بألم في ظهرها، في البداية ظنت أنه من الإرهاق وكثرة الحركة ولكن الألم قد بدأ يزداد

كثيرا، إلا أنها لم تخبر زوجها فقد كانت تعلم أن أمامها عشر ساعات على الأقل لتلد الصغير.

فتحاملت على نفسها ولم تظهر أي ألم.

وقفت في مدخل المعبد تلتقط أنفاسها، وحاولت أن تشتت انتباهها لتنسى الألم.

تنظر إلى التماثيل الضخمة، ذي الأكتاف المنتصبة، تغمض عينيها وتبتلع ريقها في كل انقباضة، تستمع إلى شرح حماها لبعض التماثيل والنقوش، بالكاد تستطيع التقدم حتى وصلوا إلى داخل المعبد بعد تجاوز صالة الأعمدة.

ثم دخلوا غرفة تسمى بغرفة الولادة، رسمت على جدرانها رسومات تظهر ولادة الملك أمنوحتب الثالث الإلهية من الإله آمون، وهى غرفة بناها ليضفى على حكمه شرعية، ويؤكد نسبه المقدس إلى الآلهة، نظرا لأن أمه لم تكن مصرية، وقد بنى المعبد كله لنفس الغرض.. لم يكن في الغرفة إلا فوج واحد من السياح الألمان، وأسرة مصرية صغيرة من أب وأم وولد صغير، يحاولون تصوير كل ما تقع أعينهم عليه.

حتى دكتور توفيق، فقد أنهى ثلاثة أفلام، واضطر للتوقف في إحدى البازارات لتحميض الأفلام ووضع فيلما جديدا في كاميرته، قبل زيارة معبد الأقصر حتى لاتفوته فرصة التقاط الصور.

وما أن دخل الغرفة حتى عكف على تصوير كل الرسومات، حتى دخل الولد الصغير في إحدى صوره مبتسما رافعا يديه بحركة طفولية، فداعبه دكتور توفيق والتقط صورة معه.

فجأة دوى صراخ عاليا في أرجاء المعبد، ففزع الولد وجرى إلى أمه.. بينما نظر دكتور توفيق إلى زوجة ابنه، لقد فاق ألمها قدرة تحملها، فالتفت عادل إلى زوجته مذعورا.

كانت ياسمين قد فقدت ماء الجنين، وانحنت لتجلس في الأرض ممسكة بطنها، وهى تصرخ متألمة.

كان الوقت مبكرا على ولادتها، فولادة أول طفل تستغرق ثمان ساعات على الأقل.

لكنها لم تشعر بالألم إلا عندما دخلت المعبد من نصف ساعة.

صرخاتها جذبت شرطة المعبد الذين جاءوا مسرعين، ليصدموا بمشهد الولادة.

مال عادل على زوجته في الأرض محاولا تهدئتها، بينما كان دكتور توفيق يصيح في الجمع ليتصل أحدهم بالإسعاف

كان المشهد مربكا.

اقتحم أحد حراس المعبد الجمع ليرى ما يحدث!!

كان عادل وقتها جاثيا على الأرض ممسكا بيده زوجته يحاول تهدئتها وتنظيم تنفسها، وياسمين تصرخ بشدة للذهاب إلى المستشفى.

صاح الحارس في المتواجدين، ليخرجوا خارج غرفة المعبد، فخرج الفوج الألماني، والأسرة المصرية الصغيرة، لحق بهم أفراد شرطة المعبد وأحدهم يحاول استعجال سيارة الإسعاف في جهاز اللاسلكي الخاص به.

ثم خرج وراءهم الحارس الذي عاد سريعا بملاءة نظيفة ليغطى بها ياسمين، واتجه خارجا.

بقى في الغرفة عادل ودكتور توفيق وبعض القطط التي تجمعت على غير العادة غير مكترثة بالجمع والصراخ.

تكلمت ياسمين وهى تئن من الألم موجهة كلامها إلى زوجها:

. ساعدني يا عادل... الألم لا يحتمل

نظر دكتور توفيق إلى ابنه مربتا على كتفه لتهدئته:

. ساعدها أنت.. وأنا سأخرج لأجلب الإسعاف.. أنت طبيب وهذه مهنتك فلتساعدها.

بدأت ياسمين في دفع الطفل إلى الخارج وما هي إلا دقائق حتى سمع دكتور توفيق من الخارج بكاء طفل صغير، وابنه يصرخ:

. إنها فتاة

يا لسخرية القدر من دكتور توفيق، فقد ولدت حفيدته في غرفة ولادة العظيم أمنوحتب الثالث!

الفصل السادس

مرت أيام منذ ولادة سارة عادل توفيق، عادت خلالها الأسرة الصغيرة إلى الفيلا الكائنة بمنطقة المعادى بالقاهرة

كانت ياسمين قد تماثلت للشفاء رغم إرهاق الطفلة لها والسهر المستمر ليلا.

ودكتور عادل استأنف النزول إلى عيادته تلبية لنداء مرضاه.

أما دكتور توفيق فقد وزع وقته بين حفيدته، وعمله، بعد مضى أيام على وفاة صديقه ديفيد.

كان أول شيء بحث عنه عند عودته من الأقصر هو الأوراق التي أرسلها إليه بالفاكس قبل سفره.

فحصها كثيرا، وأخرج الكثير من كتبه القديمة.

عادت الحياة إلى مكتبه المهجور، فقد افترش المكتب والأرض بالعديد من الكتب والخرائط.

كان مشتت الفكر بين أوراق صديقه وأسباب موته، وعلم أن من سيحدد أسباب الوفاة معنى تلك الأوراق التي أرسلها إليه

قسمت الأوراق قسمين، أوراق قديمة للغاية بعض منها كتب باللغة الفرنسية يبدو أن ديفيد حصل عليها من شخص سبق له دراسة معبد دندرة، وبعض الأوراق الصغيرة التي احتوت على ملاحظات صديقة بالإنجليزية، وورقة أخيرة كبيرة الحجم كالخرائط، فتحها دكتور توفيق على الأرض، كانت تمثل رسم توضيحي لدائرة

الأبراج التي وجدت في معبد دندرة وسرقت وأخذت إلى باريس في القرن 18.

وبعد الكثير من الفحص والقراءة حتى تشكلت بذهنه فكرة غير منطقية انتفض على أثرها من مكانه بعد أن تأكد له ما كان يعنيه بحث صديقه. ولكن الأكثر خطورة أنه تأكد أنه قد قتل!!

كما حدث مع زوجته منذ أكثر من عام.

والقاتل واحد!!

لم يعد الأمر مجرد غلطة ارتكبتها منى عندما كتبت أطروحة علمية عن شخصيات العصور القديمة.

نهض من جلسته على الأرض وأمسك سماعة تليفونه ليضغط بعض الأرقام وانتظر حتى أتاه صوت من الجهة الأخرى.

. توفيق: منصور.... أريدك في أمر هام.. أنا وصلت من عدة أيام... أين من الممكن أن نتقابل... جيد بعد ساعة سأكون هناك.

الفصل السابع

بعد خمسة وعشرين عاما....

تحركت بسرعة كبيرة في غرفتها، وهى تضع ملابسها في تلك الحقيبة الضخمة التي امتلأت بالكتب أكثر من الملابس.

ثم وقفت أمام مكتبة ضخمة، تنظر وتتفحص الكتب ثانية لتتأكد أنها أخذت كل ما يلزمها.

صوت طرق على باب غرفتها لتصيح سارة:

. تفضلى يا أمي

فتح الباب ودخلت ياسمين، حاملة بيدها صينية عليها كوبان من العصير، كانت ياسمين تبدو أكبر سنا بخمسة وعشرين عاما.

وضعت العصير على منضدة إلى جوارها وجلست على الكرسي في وجوم وهى تحاول كتمان بعض الغضب الظاهر على وجهها

جلست سارة على الكرسي المجاور ومعها حقيبة أخرى أقل ضخامة من التي تحمل بها ملابسها.

مرت السنوات وأصبحت سارة شابة يافعة وجميلة، تخرجت في كلية الآثار، بعد أن زرع فيها جدها حب هذا الفرع من العلوم، حتى أنها سافرت إلى لندن ستة أشهر تدربت فيها معه، وعادت لتنتهي من الماجستير، وتستعد لدخول سباق الدكتوراه العلمي.

ورثت الكثير من صفات جدها، من حب العلم والاستطلاع، والعند الشديد.

أما الشكل فقد تنوع بين عيون والدها البنية التي ورثها في الأصل من والدته دكتورة منى، وشعر والدتها الطويل المنسدل بطول ظهرها، الأنف الصغير من جدتها، والفم المنتفخ قليلا والقامة اليافعة، والذكاء من والدها.

قضت الكثير من الوقت مع دكتور توفيق، ليحكى لها قصص مغامراته، وحكايات لعنة الفراعنة، والمومياوات التي تستيقظ ليلا.

لعنة بوق الملك توت عنخ آمون، المعروف ببوق الحرب العالمية.

المقابر التي كانت تكتشف وتخلف وراءها عددا من القتلى في تسلسل غريب دون أي سبب واضح.

حتى أصبحت شديدة التعلق بدراسة التاريخ القديم، لديها تلك النزعة لاكتشاف وتفسير كل ما هو غامض، وشغف داخلي يتلذذ كلما اقتربت من الخطر، أو سمعت عن لعنة.

عندها اتخذت قرارا جادا في الالتحاق بكلية الآثار رغم محاولات أبيها وأمها إثنائها على تغيير رأيها، لكنهم فشلوا، أدركوا أنها اتخذت القرار ولن تتراجع فيه، "فتاة شديدة العناد".

فتحت حقيبتها وهى تحاول تجنب النظر إلى والدتها، كانت تشعر إلى حد كبير بما في داخل أمها من غضب ورفض للسفر.

أخرجت بعض الأدوات الخاصة بالترميم، وأمسكت برقعة قماش وبدأت في تنظيف أدواتها.

أتى صوت أمها ليبدد الصمت السائد في الغرفة:

.لا أعرف ما أهمية تلك الرحلة لكِ؟

فكان الرد جاهزا ومنمقا ككلام أخبار الساعة التاسعة:

. ستزيد من خبرتي في مجالي.. وسأنتهي من رسالتي أخيرا.. وسأتعلم الاعتماد على نفسي.

. بالطبع هذا حديث جدك وليس حديثك.

أمسكت كوب العصير ورشفت منه رشفة محاولة لكسب بعض الثواني لتجهز ردا مناسبا:

. عندما يكون المبدأ صحيحا.. لا يهم كثيرا من القائل.

قالت والدتها بصوت هادئ في محاولة أخيرة لاستمالة ابنتها:

. سأكون في غاية القلق

. لا تخافي يا أمي أنت تعلمين أنى بمائة رجل

. متى ستعودين؟

. أسبوع... حتى انتهى من كل ما أريده.

ارتسمت على ياسمين ملامح الحدة، وارتفعت نبرة صوتها:

. أسبوع كامل يا سارة، لا أراك فيه

. تعالي معي الأقصر

عادت ذاكرة ياسمين إلى الوراء مع وقع تلك الكلمات، وجال بفكرها آخر مرة زارت فيها الأقصر في الحقيقة كانت الزيارة الأولى والأخيرة بعد أن ولدت سارة في المعبد ونقلت بعدها إلى المستشفى، لا تستطيع أن تنسى لحظة واحدة مما حدث، تذكرت كلام الأطباء عندما أخبروها أن ما حدث في الولادة كان غير اعتياديا لكنها انتهت إلى طول صمتها فنظرت إلى ابنتها وهى تقول:

. بعدما حدث لي في المرة الأولى والأخيرة.. لن أذهب مرة أخرى

نظرت إليها ابنتها في ابتسامة، لأنها علمت ما تعنيه:

. سأتصل بك دائما

هزت الأم رأسها، وهى تستسلم للأمر الواقع.

تيقنت ياسمين أن ابنتها أصبحت مهووسة بدراستها في الوقت الذي تجرى فيه الفتيات وراء فتى الأحلام أو الارتباط، تعودت أن تترك لها مساحة من الحرية على أن تضع هي حدود خفية لتلك الحرية.

يلازمها ذلك الشعور الخفي.. شعور الأم بالقلق والتوجس، منذ ولادة ابنتها بطريقة غريبة ومكان أغرب، ظلت تخبر نفسها لا يمكن أن يكون كل ذلك محض صدفة!!

بالطبع وصل إلى أذنيها بعض الإشاعات الخاصة بما حدث إلى حماتها والدة زوجها دكتورة منى، فالألسنة لم تتوقف إلا بعد سنوات عدة، وفى الذكرى السنوية لحماتها حاولت استغلال الفرصة لسؤال زوجها عادل عما حدث وما يقال، أنكر كل شيء، لكنها بالطبع علمت أنه يكذب من الكلمة الأولى، وهذا ما زاد من قلقها وشكها.

ورغم صرامتها الشديدة مع ابنتها، أدركت أنه لا فائدة من مناقشتها في البقاء أو السفر، فأنهت تلك المحادثة:

. سأتركك للنوم، تصبحين على خير.

لكن سارة حاولت امتصاص غضب أمها، فضلت ألا تتركها للنوم دون أن تنول رضاها، فطبعت قبلة صغيرة على خد والدتها قبل أن تقول لها بابتسامة:

. وأنت من أهل الخير يا أمي.

نظرت إلى ابنتها بعد أن نجحت القبلة في التخفيف من علامات الغضب والضيق، لكن بالنسبة لها ما بالقلب سيبقى بالقلب... ستعيش أسبوعا كاملا ترسم خيالات مخيفة لما يمكن أن يحدث لابنتها.

أصبح الوضع متأزما بعد أن قرر عادل ترك ابنته لتحقق حلمها.. طالما تخبرهم دائما بما تنوى فعله ولا تخفى شيئا.

إلا أن قلب الأم له حسابات أخرى.. تناولت صينية الأكواب الفارغة ونظرت إلى ابنتها دون تعليق، وخرجت من الغرفة.

أغلقت سارة كل أمتعتها، وحاولت تنظيم غرفتها التي كانت إلى حد كبير تشبه مكتب جدها في فوضويته، قبل أن تغادر حتى لا تحمل والدتها مشقة ترتيبها فقد تراصت الكتب على أرضيتها كالأبراج مع ازدحام المكتبة.. الكثير من الخرائط والمساقط الأفقية للأماكن الأثرية افترشت أركان الغرفة.

لملمت ذلك الوضع الفوضوي.

وأطفأت أنوار غرفتها ونامت.

كانت ليلة قمرية صافية للغاية، رغم انخفاض درجة الحرارة، وهدوء يطبق على الشارع بالخارج فلا تسمع سوى صوت تنفسها ودقات قلبها.

سرعان ما استغرقت في النوم.. ليبدأ حدثا غريبا يغير منحنى حياتها إلى الأبد.

حلم غريب يغزو عقلها دون إذن.

تسارعت دقات قلبها بشدة.

قطرات العرق تتكاثر بغزارة على جبهتها رغم برودة الطقس.

تحركت عيناها يمينا ويسارا بسرعة تحت الجفون.

ازدادت دقات القلب أكثر وأكثر.

تسارع تنفسها كما لو كانت تعدو في مضمار للسباق!

لم يقتصر الحلم على الرؤية بل شعرت بكل ما حدث لها.

وجدت نفسها في أحد المعابد لكن في عصور قديمة كما لو أنها قد عادت بالزمن إلى الوراء لآلاف السنين.

استنتجت ذلك من الرسومات والأشكال على الأعمدة التي كانت تبدو حديثة الرسم.. رائعة الشكل، ألوانها زاهية براقة، لم يكن بها أي آثار للتلف.

كان كل شيء يبدو ضبابيا في البداية، نظرت إلى جسدها فوجدت رداء أبيض اللون مقسم تماما على انحناءات جسمها، وهى تمشى في ممر ضيق وعن يمينها ويسارها طابور من الرجال حليقي الرأس، لا يرتدون سوى إزارا أبيض من الكتان ناصع البياض على الوسط، وفى أقدامهم أحذية تعرفت عليها فورا وهى من البردي المضفور من أسفل إلى أعلى.

لم يستغرق الأمر منها سوى نصف دقيقة حتى أدركت أن هؤلاء بما يرتدونه ليسوا سوى كهنة مصر قديما!!

حاولت التوقف قليلا لكن اثنان منهم أمسكا بها لتكمل طريقا طويلا ينتهي بدرج حجري.

تعلوه منصة وقف عليها رجل متقدم في العمر، يرتدي قطعة كبيرة من جلد الفهد تلتف حول جسده وترتفع إلى أعلى الكتف مزينة بنجوم صغيرة.. أدركت سارة أنه كبير الكهنة من ملابسة المميزة.

توقفت المسيرة وبدأ الكاهن في تلاوة بعض الكلمات التي لم تفهمها، ثم أخرج لفافة ورقية ضخمة من إطارها الذهبي الذي تتوسطه ماسة تنبض باللون الأحمر وأشار بيديه فأمسك اثنان من أتباعه بها لترتقي ذلك الدرج حتى وقفت مواجهة لكبير الكهنة، الذي مال عليها وبدأ في قراءة النصوص الموجودة في الكتاب.

وما أن انتهى الكاهن حتى رفع بين يديه قلادة على شكل مفتاح الحياة، ووضعها حول رقبتها.

بدأت تشعر بموجة من الطاقة تتسلل إلى جسدها وعقلها، تقطعت أنفاسها، وشعرت بامتلاء روحها بتلك الطاقة، ازداد الألم في رأسها حتى حاولت انتزاع تلك القلادة.. لكن أمسك بها مساعدو كبير الكهنة حتى لا تنتزعها.

قاومت

وصرخت

حتى انتبه عقلها واستيقظت من نومها، لا تميز بين الحلم والواقع.. تحاول استجماع تركيزها.

قفزت من على فراشها في ذعر، لتتأكد أنها في غرفتها، وجدت الشمس قد أشرقت، وأسدلت شعاعها فغطت معظم أركان الغرفة، نظرت إلى هاتفها فكانت ساعته تشير إلى السابعة صباحا.

وضعته جانبا، وتحسست رقبتها مكان القلادة، لا أثر لأي حروق رغم أن الألم يبدو حقيقيا جدا.

شعرت بشعور مختلف تماما، شيء بالداخل تغير لا تعرف كينونته، لكنها لم تعطى بالا كثيرا له، خمنت أنه تأثير نفسي تركه الحلم بها وسيزول بعد عدة ساعات.. آثرت أن تنسى ما حدث وتبدأ يومها الطويل والشاق بلا قلق!

الفصل الثامن

ترجل من سيارته بعد أن ركنها موازية تماما للرصيف، اطمأن على سلاحه المعلق بجانبه، تأكد من وجود دبلته التي زينت يده اليمنى، أدارها يمينا ويسارا فقط ليتأكد أنها في الموضع الصحيح، فهو لم يكن قد اعتاد بعد على ارتداء شيء في أصابعه واتجه نحو مبنى مديرية الأمن.

الضابط "المقدم" حسام فكري المنشاوي، شاب مصري طويل القامة، كثرة تدريباته البدنية رسمت جسمه المتناسق ومنكبيه العريضتين بدقة.. عندما تنظر إليه لا تستطيع تجاهل تلك العينين اللتين تتلألآن بلون بني إلا أنهما حادتا الملاحظة مخيفتان للكثيرين ممن يقعون تحت يديه في التحقيق.

عيناه كجهاز كشف الكذب تستشعر من الوهلة الأولى الشخص الكاذب من الشخص الصادق، بل أن والده اللواء فكري كان يخبره دائما أن الله أعطاه موهبة قراءة كل أنواع الشخصيات مهما تكن غامضة وملتوية!

نظر إلى ساعته التي اتجهت عقاربها لتشير إلى الساعة السابعة إلا عشر دقائق. دلف إلى مبنى المديرية رافعا يده لتحية بعض عساكر الأمن المركزي الذين كانوا يلتهمون بعض شطائر الفول والطعمية ذلك الإفطار المصري الأصيل.

جال بأعماقه أفكار عدة بداخل كل منها الكثير من الأسئلة، منذ أن رن جرس هاتفه السادسة صباحا ليستدعيه نداء طارئ إلى العمل.

بطبيعته لا يحب الترقب والانتظار، لا يرى الأسئلة إلا وبجانبها أجوبة تشبع عقله بمنطقية وإقناع.

تسلق العديد من درجات السلم بوثبات سريعة قبل أن يمر في ممر طويل، تجمع به بعض الخارجين عن القانون.

الكثير من الأطفال يفترشون الأرض بملابس رثة وممزقة، يقف عليهم أمين شرطة رفع يده لتحيته.

رجل امتلأ وجهه بالدماء، وتورمت عيناه، يمسك به أمين شرطة ضخم، بالطبع لم يكن يحتاج إلى تخمين ما حدث.

استدار بعدها ليتسلق المزيد من السلالم ليصل إلى طابق آخر اتخذ ممرا جانبيا خاليا إلا من بعض العساكر الذين كانوا يتحدثون فيما بينهم، وما أن لمحوا النجوم على كتف حسام حتى توقفوا عن الكلام لتحيته.

بعدها اتجه مباشرة إلى أحد أبواب المكاتب المغلقة، يعلوها لوحة صغيرة كتب عليها، لواء منصور حلمي.

لواء منصور حلمي رسم تاريخا مشرفا في شرطة السياحة والآثار.

حفر اسمه باستحقاق وبثقة كبيرة اكتسبها بعد العديد من ضبطيات الآثار الكبيرة، ترقى من رتبة ملازم أول حتى وصل إلى رتبة لواء.

كان يحيط بشخصيته العديد من الغموض والأسئلة التي افتقرت إلى إجابة، الكثير من الضبطيات الأثرية التي قام بها لم تكن تحت رادار الشرطة، ولم يكن أحد يعلم بها.

ولا حتى المخبرين أنفسهم مما يعلمون كل صغيرة وكبيرة، مما دفع من البعض باتهامه هو شخصيا في الاتجار بالآثار، والانقلاب على

شركائه وتسليمهم إلى الشرطة للاختلاف على المال أو الغنائم. لكن لم يستطع أحد أن يثبت عليه أي تهمة مما كان يثار حوله.

ذو شخصية قوية، لا يحب أن يكثر في كلامه حتى في أهم المواضيع، لا يوجد عسكري أو أمين شرطة تعامل معه إلا وخرج برأي واحد هذا الرجل له هيبة غير مفهومة.

عندما كان برتبة عقيد نشر اسمه كثيرا في الصحافة، وطبع اسمه بجانب أشهر قضية لتهريب الآثار عرفت وقتها باسم "قضية الفرعون"، استطاع فيها العقيد منصور الإمساك بعصابة لتهريب الآثار، حاولت سرقة مقبرة كاملة لبيعها خارج البلاد.

وقتها سربت للصحافة جزء من تحقيقات النيابة، عندما أوعز رئيس النيابة لرئيس العصابة أن أحد رجاله هو من سلمه لكي يعترف، رد المتهم:

. "منصور بيه ده مخاوي جن يا سعادة البيه إحنا محدش يعرف عننا حاجة ورجالتي لا يمكن يخونوني".

وبعد أن ترقى وأصبح اللواء منصور، ركز كل وقته على تدريب جيل جديد من الضباط للقيام بمهام الضبطيات الصعبة.

لكنة كان يبحث عن واحد فقط بمواصفات محددة ليورثه خبرته.

طرق حسام الباب ثلاث خبطات فسمع صوتا من الداخل يقول: ادخل.

دخل المكتب وأدى التحية العسكرية.

ابتسم اللواء منصور قائلا:

. أهنئك على الخطوبة يا حسام

كان حسام قد خطب ابنة خالته هبة، واحتفل بحفل خطوبته لمدة يوم واحد قبل أن يتم استدعاؤه ويقطع إجازته.

حسام من جيل الشباب، اقتنع بأسلوب مختلف في عمله، عرف طرق ودواليب تجارة الآثار والتنقيب فيها، حقق العديد من النجاحات في قضايا كبرى، نشرتها الجرائد إلى جانب اسمه، فأصبح معروفا لدى الكبار في وزارة الداخلية.

حتى وضعه اللواء منصور تحت منظاره بسبب سمعته، وكان سببا رئيسيا في استدعائه.

. حسام: أشكرك يا فندم.

منصور: لم أكن لأستدعيك قبل نهاية إجازتك إلا أن الأمر طارئ.

ثم أشار منصور إلى حسام بالجلوس، قبل أن يستطرد:

. بالتأكيد سمعت عن الحرائق التي تحدث بالصعيد، المنازل هناك تشتعل فجأة، الموضوع تسبب في ضجة كبيرة لأن الجرائد كتبت كثيرا عنه وبالتالي القنوات التليفزيونية أذاعت الخبر ونقلت حلقات من داخل القرية.

. شاهدت بالفعل حلقة مذاعة عن تلك القرية في أحد البرامج وواضح أن الناس هناك مقتنعة أن السبب الجن والعفاريت

. الموضوع يا حضرة الضابط ليس له علاقة بالجن والعفاريت، تلك الخرافات لا تدخل علينا....

هز حسام رأسه موافقا:

. الموضوع له علاقة بتجارة الآثار.. أليس كذلك؟

أومأ اللواء منصور برأسه موافقا، قبل أن يكمل:

. بالضبط.. هناك شيء ضخم يدبر في الخفاء.. نتيجة التحريات قالت إن هناك شخصا من القرية وجد كمية كبيرة من الآثار.. وبالطبع يخطط لتهريبها.. غير أن المخبرين أكدوا دخول سياح القرية في أوقات متأخرة.

. والشرطة هناك، ألم تستطع فعل أي شيء؟

. المشكلة أننا لا نستطيع تحديد من وراء ما يحدث هناك، نتيجة لحالة الهلع والخوف المنتشرة داخل القرية، الشكوك تدور حول عدة شخصيات من كبار رجال القرية، ومجرد التعرض إليهم بدون أدلة سيخلق مشكلة كبرى بين الشرطة وأهل القرية، وسيهدم كل الثقة التي كنا نحاول أن نبنيها الأعوام السابقة.. أنت تعلم بالطبع أن مجتمع الصعيد يتكون من عائلات كبيرة، ذات نفوذ أكبر في كل جهات الدولة، إذا اتهمنا أو تعرضنا لأي شخص دون أدلة دامغة سنغرق في المشاكل وسنجد ضغوطا من كل مكان، غير اقتناع الناس بالخرافات، جعل الكثيرون يرفضون الكلام والتعاون معنا، بالإضافة لقلة المعلومات عن طبيعة ونوع الآثار التي يرتبون بيعها، ومكان وجودها.

. غالبا البيع يتم عن طريق وسطاء، والمعاينة تكون عن طريق خبير من طرف الشاري، وسبب وجود الشاري بنفسه داخل القرية، من واقع خبرتي فإن الموضوع لا يقتصر على بيع وشراء الآثار.. هناك بالفعل شيء آخر يحدث

. بالضبط، الموضوع كبير

ثم نهض اللواء منصور من جلسته، متجها إلى مكتبه، فتح أحد الأدراج وأخرج ملفا، وعاد به ليجلس في الكرسي المقابل لكرسي حسام، ليعطيه إحساسا بالاطمئنان أكثر مما تبدو عليه جلسته على كرسي المنصب، ومد يده ليعطيه الملف.

تناول حسام الملف باستغراب، وهو ينظر إليه، متمنيا منه تفسيرا آخر غير ما توصل إليه عقله!

اعتدل اللواء منصور في جلسته، وقرب وجهه من حسام مركزا نظره عليه:

. هذا ملف القضية، وأنت مكلف بالذهاب إلى هناك والتحقيق بشكل سرى.

حاول حسام أن يجد مخرجا عقليا مع اللواء منصور لرفض المهمة رغم علمه في قرارة نفسه أن الموضوع انتهى والقضية أصبحت له:

. لكن يا فندم...

قاطعة اللواء منصور:

. حسام أريدك أن تعرف أنني اخترتك.. لأنني أعلم تماما إمكانياتك وطريقة عملك وأساليبك جيدا، والقضية تحتاج إلى رجل مثلك.. أنا أعلم أنني أطلب منك الكثير نظرا لأنك ستقطع إجازة الخطوبة.. لكنى أعدك أنني سأضاعفها لك عند انتهاء القضية.

شعر حسام أنه لا مكان للجدال والمناقشة بكلمة أخرى واضطر للموافقة والخضوع إلى الأوامر، بينما أكمل اللواء منصور حديثه قائلا:

. يجب ألا يعلم أحد أنك ضابط.. ستكون هناك بشكل سرى لتجمع الخيوط معا.. كما أنى أريدك أن تأخذ معك أحد الأمناء الذي تثق فيه كي يساعدك

فأومأ حسام برأسه قائلا:

. بسيطة يا فندم

. العمدة هناك متعاون معنا جدا خاصة أن الموضوع قد أثر كثيرا على شعبيته وسبب له مشاكل.. لقد تكلمت معه وقد وافق أن يستضيفكم في داره، ويسهل لكم كل ما تحتاجونه

. أنا مدرك يا فندم أن الموضوع كبير، ولن أقصر

أخذ اللواء منصور نفسا عميقا وتراجع ليريح ظهره على مسند الكرسي، ليكمل كلامه:

. نأتي إلى الجزء الأصعب، لقد سألت دكتور في المصريات صديقي، عن المنطقة التي توجد بها القرية وعن نوعية الآثار التي من الممكن أن تتواجد فيها.

فقال حسام مسرعا:

. أنا كنت سأستشير أحدهم فعلا

. بالضبط.. لقد جعلتها أسهل كثيرا لي

نهض من الكرسي المقابل لكرسي حسام واتجه للجلوس على كرسيه خلف المكتب، ليوحي لحسام أن الكلام القادم هو أمر مباشر بحكم منصبه لا يريد نقاشا فيه.. تلاعب عاطفي اعتاد عليه ليستميل البعض إلى ما يريده، واستكمل حديثه:

. أريدك أن تفهم جيدا الكلام القادم.. أريدك منك أن تأخذ معك خبيرا في الآثار إلى تلك القرية

ثم حرك اللواء منصور يده دائريا، قبل أن يكمل:

. هم يملكون نظرة علمية من الممكن أن تفيدك كثيرا.. الآن كل الأجهزة الأمنية في العالم تستعين بمختصين وعلماء في كافة المجالات.

. في قضيتي الأخيرة استعنت بمشورة استشاري في الكيمياء حتى يساعدني في حل القضية وبالفعل ساعدني جدا

ابتسم اللواء منصور، وأكمل كلامه في ثقة:

. الدكتورة التي ستساعدك في تلك القضية اسمها سارة، هي شخصية ثقة ولديها خبرة، وتحب مجال عملها جدا وهذا ما أريده

اقتضب وجه حسام معترضا:

. ولماذا أتعلق بامرأة في مهمة سرية؟، ستكون مسئولية كبيرة، وشبهة لافتة للأنظار، أنا سأكون في مهمة لجمع المعلومات ولا أريد أي شكوك تثار حولي، أو عقبات

رفع اللواء منصور حاجبيه معترضا:

. بالعكس تماما لا يمكن لشخص أن يتخيل أن الشرطة ستسعين بامرأة كخبيرة في الآثار، اطمئن لن تكون مثارا للشكوك

. يا فندم هناك الكثير من الخبراء من الرجال، ممكن أن يساعدوني دون أن يشكلوا عبئا على في حمايتهم، سأكون مضطرا طوال الوقت على حمايتها

هز اللواء منصور رأسه مستطردا:

. لن تحتاج لحمايتها ولن تكون عبئا عليك.. وأنا لن اختار أي أحد ليكون معك في تلك القضية

وأمسك علبة سجائره، سحب منها واحدة وأشعلها ليكمل والدخان يتصاعد من فمه:

. كما أن هناك غرضا في نفسي من ذلك التعاون بينكما في المستقبل.. سأحدد بناء على نجاحكما في تلك القضية الكثير من الأشياء

فهم حسام تماما أنه لا داع من الإصرار أو حتى النقاش، وانقبض قلبه من كلمات اللواء منصور الأخيرة، كان يأمل أن تجيب تلك الزيارة على تساؤلات أشعلتها مكالمة السادسة صباحا، فخرج من المكتب وفى رأسه سؤال كبير حتى يعرف إجابته

. تمام يا فندم

قالها في ضيق ونهض من كرسيه، مؤديا التحية العسكرية واتجه نحو باب المكتب، قبل أن يوقفه اللواء منصور، متحدثا بلهجة آمرة:

- حسام.. أريد أن تنتهي تلك القضية في أسرع وقت، فالصحافة والتليفزيون كالصداع المقيت في الرأس

. في أقرب وقت، سأبذل قصارى جهدي لأنهيها

أغلق حسام باب المكتب، وهو يفكر في شيء واحد، كيف سيشرح الأمر لخطيبته، ووالدته.

تمشى في الممر الطويل ورأسه ممتلئ بالتناقضات هل يحزن أم يفرح... لم يفهم أبدا ذلك الشعور المتضارب، ربما تلك المهمة سترفع الحرج عنه بعض الوقت.

ما زال لم يتكيف على نفسه وهو الآن مرتبط، ربما ستعطيه تلك المهمة الوقت الذي يحتاجه ليعتاد فكرة الارتباط، التي عندما كانت تأتى كخاطر على قلبه كان يتمنى أن يعيش قصة حب مكتملة الأركان، يشعر بالشغف والشوق واللذة في لمس يد محبوبته.

لكن القدر لم يمهله ليفعل كل ذلك، فمرض والده المزمن واستعجال والدته دمرا تلك الأحلام تماما.

اتخذ نفس طريق العودة إلى سيارته، وما أن دخل السيارة حتى تنهد تنهيدة طويلة وفرك عينيه في حيرة.

أخرج هاتفه، وكتب رسالة صغيرة تردد ومسح بعض الكلمات منها وأعاد صياغتها إلى خطيبته ليشرح لها ظروف استدعائه في مهمة رسمية، ويعتذر منها لاضطراره السفر وتركها ثاني أيام الخطوبة.

كان يعلم أن هبة شديدة العصبية لقد تربيا معا... هو يعرف ذلك جيدا وهذا أكثر ما يزعجه فيها.

ثم فتح قائمة الأسماء باحثا عن اسم إبراهيم.

إبراهيم أكثر أمين شرطة عمل معه في العديد من القضايا، اكتسب خبرة كبيرة وأصبحت له علاقات وأزرع كالإخطبوط تجلب له المعلومة من فم الأسد نفسه، كان حسام يأتمنه على حياته، ويوكل إليه بالمهمات الصعبة.

عشرته لحسام جعلته يفهم شخصيته أكثر من هبة خطيبته، في كثير من المواقف التي جمعت بينهما كان حسام لا يحتاج إلى الكلام مع إبراهيم فقط ينظر إليه ويقوم هو بما عليه القيام به، ذلك التخاطر الذهني الذي لا يتوافر إلا نادرا.

رن جرس الهاتف، بينما كان حسام يتفحص الملف الصغير، ثم تكلم مع الطرف الآخر على التليفون:

. إبراهيم... كيف الحال.. لدينا قضية جديدة.. احزم حقائبك.. أراك بعد ساعتين من الآن.. وداعا.

أغلق حسام الهاتف وألقى به على الكرسي المجاور بعصبية وهو شارد الذهن، فرك جبهته بتوتر.

لم يكن متوترا من المأمورية، فهو لم يتوتر من قبل في مأمورياته، حسام يعتقد دائما أن التوتر يجلب الفشل في زيله كالبرق.

إنما هناك سبب آخر كان يرقد كالجبل في أعماقه ويسرق طاقة تفكيره، كيف سترد هبة على رسالته، أنه أول موقف يتعرضون له بعد الخطوبة، إنها ليست فقط خطيبته بل ابنة خالته أيضا، من المخزي أن يكون قليل الرجولة أمامها ويتركها من أول يوم خطوبة !!

إلى جانب عاصفة من المشاكل ستهب ضده في البيت.

لن تقف والدته سعاد بجانبه، كل أمله في أبيه الذي سيتفهم طبيعة عملة ويدافع عنه.

ألقى نظرة خاطفة على الساعة ثم أدار مفتاح السيارة وقرر الانطلاق إلى البيت ليجهز متعلقاته، ويقابل عاصفة الغضب العائلية.

الفصل التاسع

الأقصر مرة أخرى بعد خمسة وعشرين عاما.

الكثير من الملامح تغيرت.

الملابس تغيرت

الأشخاص تغيرت

وحتى النفوس تغيرت

لكن ذلك السحر الخفي ظل كما هو يجذب الكثيرين من كل القارات.

تلك الروح الساكنة في قلب المدينة مازالت حية ترفرف لتبدو أكثر شبابا كلما مر عليها الزمن.

لا تشيخ

ولا يغفو بريقها

المكان: معبد الأقصر

صورة لمعبد الأقصر

بني معبد الأقصر في عصر الدولة الوسطى على يد الملك أمنوحتب الثالث، وجاء بعده الملك رمسيس الثاني ليضيف الكثير من الأجزاء للمعبد.

وخصص المعبد لعبادة الإله آمون رع وزوجته موت وابنهما خونسو، وقد أطلق على المعبد اسم "ايبت رسيت " التى تعنى "الحرم الجنوبى".

وهو يعد من أكبر المعابد الباقية، التي يظهر فيها تخطيط المعبد المصري القديم بكل عناصره، بداية من قدس الأقداس وصالات الأعمدة والمقاصير الملحقة.

وكان السبب في إنشاء ذلك المعبد هو محاولة أمنوحتب الثالث في تأكيد نسبة للإله، حيث كانت تقتضى قوانين الملكية المصرية قديما أن يكون الملك من أب وأم مصريين، إلا أن الملك أمنوحتب لم تكن أمه مصرية، فبنى المعبد ليؤكد شرعيته في الحكم، وتسجيل ولادته الإلهية في مقصورته الشهيرة المعروفة بغرفة الولادة.

تلك الغرفة التي احتضنت ولادة سارة، منذ خمسة وعشرين عاما.

تعلقت سارة على إحدى سقالات البناء التي اعتاد المرممون نصبها في المعابد للوصول إلى الأماكن العالية وترميمها، تمسك بيدها دفترها الصغير لتترجم بعض النصوص، تمسك بالفرشاة لتزيل الأتربة من على بعض الأحرف لتكمل ترجمتها.

ولو أن ياسمين رأت ابنتها متعلقة على هذا الارتفاع الضخم من أجل ترجمة بعض النصوص لأنهت حياة ابنتها العلمية والعملية!

رغم تركيزها الشديد لإنهاء مهمتها سريعا والعودة إلى المنزل، إلا أن الحلم كان يسرق جزءا كبيرا من تركيزها، ولولا أنها بدأت تشعر كثيرا بتغييرات فيها شخصيا لما أعطت انتباها له.

بدأ الأمر عندما بدأت ترى كل من حولها ككتاب مفتوح، تعرف ما يشعرون به، كانت تقرأ لغة أجسادهم بكل سهولة، تلك اللغة التي صمم جدها أن تتقنها وتتدرب عليها يوميا، لكنها تركت التدريب عليها منذ زمن لضيق وقتها، ولم تكن بذلك الإتقان الذي يجعلها تضيع المزيد من وقتها، في البداية ظنت أنها تعرف والدتها كثيرا فاستطاعت الإحساس بها وبما تكنه، تكاد تكون سمعت عقل والدتها وهو يفكر ويخاطب نفسه.. إلا أن الأمر تكرر مع سائق التاكسي وموظفي المطار.. حتى الرجل الذي جلس إلى جانبها في الطائرة!!

أشخاص لا تعرفهم بالمرة.

أشخاص لم ترهم من قبل.

وما أن تسلقت تلك السقالة حتى حدث ما لم تكن تتخيله فقد بدأت في ترجمة النصوص دون الحاجة إلى كتاب ترجمة، كأنها تعرف الهيروغليفية عن ظهر قلب.. أو ولدت وهى تتحدثها، وصل الأمر أنها كانت تستكمل تلك النقوش الناقصة في دفترها بثقة كبيرة، تلك اللغة التي كانت نقطة ضعفها في دراستها وطالما وجدت صعوبة في ترجمة الكثير من النصوص، كان الأمر وكأنها تقرأ جريدة الصباح المكتوبة باللغة العربية دون أي مجهود يذكر.

ناداها عم سمير، أحد حراس المعبد القدامى:

. الشاي جاهز يا دكتورة

جاوبته سارة دون أن تنظر إلى أسفل:

. أنا قادمة يا عم سمير

فى الوقت نفسه..

كان حسام يسأل عند بوابة الدخول إلى المعبد عن دكتورة سارة، فعرض عليه أحد العاملين من المعبد مرافقته إلى الداخل.

وما أن وصلا إلى صالة الأعمدة الضخمة حتى أشار الرجل إليها في اتجاه سقالة البناء:

. تلك هي الدكتورة سارة

نظر حسام عاليا في تعجب، ثم شكر العامل وأكمل باقي خطواته إلى سارة.

كانت سارة تقفز إلى الأسفل مرتدية بنطلونا من الجينز ممتلئا بالأتربة.

تحتمى رأسها بطاقية بيضاء.

وما أن وصلت إلى الأرض حتى جلست القرفصاء إلى جانب عم سمير على حصير تتناول الشاي.

وقف حسام لدقيقة يلاحظ حركاتها وتعابير وجهها وهى تتحدث إلى عم سمير ليحاول قراءة لغة جسدها كما اعتاد في عمله، فالأجساد تتحدث كما يتحدث اللسان.

حتى عطرها وصل إلى أنفه بعد أن ضربت نسمة من الهواء المكان حملت في ثناياها رائحة اللافندر.

دارت سارة بنظرها، فلمحت حسام وهو ينظر إليها، إحساس داخلي همس لها أنه جاء لها ويريد مساعدتها، ترددت قائلة في نفسها "أنا لا أعرفه.. ربما أكون مخطئة تلك المرة"، تمنت أن تكون مخطئة ولو مرة واحدة!!

شعر حسام في تلك اللحظة بنشوة وألم في صدره، وكأن الرائحة أيقظت لديه شعورا كان مدفونا في ذكرياته، لم يستطع فهمه، تردد لحظة قبل أن يستجمع أفكاره ويتقدم إلى الأمام خطوات:

- صباح الخير، دكتورة سارة

أومأت برأسها وقد تخشبت ملامح وجهها، كانت تتمنى أن تكون مخطئة، جاوبته بحنق داخلي كافحت حتى لا يظهر:

. صباح الخير.. أي خدمة؟

نظر حسام إلى عم سمير الرجل العجوز، قائلا:

. إذا سمحت هل من الممكن أن تصنع لي كوبا من الشاي؟ فحديثي مع الدكتورة سيطول.

اضطربت وهى تنظر إلى عم سمير، بينما نهض الرجل الكهل من مكانه مبتسما ومرحبا بعد أن فهم أن حسام يريد كلمة على انفراد معها، فقال له وهو يشير بيديه لحسام حتى يجلس:

. بالطبع.. تفضل مكاني

نظرت سارة إلى عم سمير، وهو يبتعد ليجلب كوب شاي آخر.

بينما جلس حسام القرفصاء على نفس الحصيرة، وهى ترمقه بثبات.

تلك هي المرة الأولى التي يجد فيها حسام نفسه في مواجهة مع فتاة تنظر إليه مباشرة دون خجل، أو خوف، لم يستطع فهمها وقراءة لغتها الجسدية، هذا هو سره ومربط الفرس في عمله..

هذا هو ما تعلم إتقانه..

لكن ما حدث كان النقيض..

شعر بنفسه ككتاب مفتوح لأول مرة، شيء ما يخترقه من الداخل.

تيبس في مكانه لحظة، وهو يقاوم تلك الموجة المفاجئة من المشاعر والأفكار.

فرك حسام يديه مزيحا التراب عنهما، تنفس عميقا محاولا نفض تلك الأفكار عنه قبل أن يبدأ بالكلام:

. أنا المقدم حسام من شرطة السياحة والآثار، أنا آسف لأسلوبي لكن اضطررت أن أبعده، لأن الكلام القادم لا يصلح أن يسمعه أحد آخر

استمرت في التحديق فيه لسبب لم تفهمه، لاحظت وسامة ملامحه، ونظافة ملابسه.. هدوء أعصابه.. قرأت كل خلجة من خلجاته في صمت

أكمل حسام كلامه أمام صمتها:

. من المؤكد يا دكتورة أنه وصل إلى سمعك تلك الحرائق التي تحدث وتتكرر يوميا في قرية هنا بجانب الأقصر

رفعت يدها وهى تعود للانتباه إلى كلامه لتوقف حسام عن الألقاب قائلة:

. إذا كان الحوار سيطول، فإذا سمحت نادني بلا ألقاب

وهزت رأسها بعلامة النفي!

. لا أحبها

هز رأسه موافقا وهو ينظر بنظرة متشككة إليها، واستأنف حديثه:

. تم تكليفي بالقضية، لكن لدينا أخبار مؤكدة أن الموضوع له علاقة بتجارة الآثار

فابتسمت قائلة:

. بالطبع... فالناس هنا يتوجسون من لعنة الفراعنة ويلقون بكل مصائبهم على تلك الشماعة، لقد رأيت الأخبار عدة مرات

. لا، أنا شخصيا لا أعتقد في تلك الخرافات، لكن فيما يتعلق بالآثار فهي معلومات مؤكدة من تحريات مخبرين الشرطة عنها

وضعت كوب الشاي بعد أن انتهت منه، بينما أتى عم سمير حاملا كوب الشاي الخاص بحسام، وضعه وغادر دون كلام.

بينما أكملت هي حديثها:

. ولماذا تخبرني بتلك المعلومات؟

. المديرية شكلت فريقا للتحقيق وحضرتك ضمن الفريق لأننا نحتاج شخصا له معرفة بالتاريخ والآثار.. سنذهب للقرية عدة أيام لنكتشف ما يحدث حقا هناك، وبالطبع أنا سأحتاج إلى مساعدتك.

صمتت للحظة متخيلة رد فعل والدتها إذا علمت أنها ذهبت إلى قرية لا تعرف عنها شيئا مع شخص لم تقابله من قبل للتحقيق، لم تكمل باقي القصة التخيلية لأنها علمت كيف سيكون رد الفعل، فأسرعت وهزت رأسها بالنفي قائلة:

. أنا حقا في غاية الأسف، لا استطيع ترك عملي هنا يمكنني أن أرشح لك عدة أسماء أفضل منى وأكثر خبرة، أضمن لك أنهم سيساعدونك و.....

قاطعها حسام قائلا:

. لن يصلح ذلك الحل، لأن حضرتك طلبت بالاسم من قبل رئيسى

عادت سريعا مرة أخرى بخيالها لردة فعل والدتها إذا علمت بذلك، ستجعلها تتخلى عن الدكتوراه وعن العلم، للتفرغ في علمها في كورسات المطبخ والبيت!!

. هل تمزح معي؟!

. بالطبع لا

اضطربت وشعرت بالحرج فحاولت الهروب قائلة له:

. أنا غير متأكدة أن كنت فعلا ضابطا كما تقول، أنا لم أكن أعرفك سوى منذ خمس دقائق، وتريدني أن أذهب معك.

أخرج حسام بطاقته ووضعها أمامها لتتأكد من وظيفته، ثم أخفاها في جيبه.

. دكتورة.. القضية أكبر من كونها مجرد كنز أثرى وجده أحدهم، هناك إناس فقدوا حياتهم وآخرون في خطر، كل يوم يمر على تلك القرية المزيد من الحرائق والضحايا، لو لم يكن الأمر خطيرا لما أتيت من القاهرة لأحقق فيه، وأطلب مساعدتك.

نظرت إليه وهى مستغرقة التفكير في حجج تصلح مع والدتها أو حجج تعتذر بها من حسام، كان بالنسبة إليها كلا الأمرين مربكا، لكنها من الممكن أن تتحمل السجن على أن تتحمل ردة فعل والدتها.

ذلك الشعور الداخلي بدأ في التوهج، في داخلها تريد الذهاب معه واستكشاف ما يحدث.

تريد الغموض

والخطر

ورائحة المقابر القديمة

ليست مجنونة، لكن على أسرتها أن تفهم شغفها.

لكنها لن تضحى برسالة الدكتوراه بعد ذلك المشوار الطويل من البحث من أجل عدة أيام تشبع فيهم شغفها المتعطش لكل ما هو قديم.

انتزعها صوت حسام:

. السفر لن يستغرق سوى عدة أيام، وستعودين لإنهاء عملك مع جواب شكر من الوزارة.

عادت لتركيزها وقررت تجربة حيلة أخرى للاعتذار دون حرج:

. هناك حل آخر، يمكنني أن أساعدك من هنا، تستطيع مكالمتي على هاتفي في أي وقت، وإذا احتاج الأمر لوجودي في القرية لرؤية شيء ما سأكون موجودة خلال نصف ساعة، فالقرية قريبة جدا من الأقصر.

صمت حسام قليلا وهو يفكر في ذلك العرض المغري، يمكنها أن تساعدني من مكانها دون أن أتحمل مسئولية سلامتها، مجرد مكالمة تليفون، وبالنسبة للواء منصور سيخبره أنه حاول إقناعها بالمجيء معه لكنها رفضت فلجأ إلى حل آخر.. وهذا ما حدث بالفعل.

فأومأ برأسه موافقا:

. فكرة جيدة لكن إذا احتجتك بالفعل في معاينة قطع أثرية

تنهدت في ارتياح مع كلماته الأخيرة:

. أعدك أنى سأكون في نصف ساعة أمامك لمساعدتك، دون أي تأخير

صمتت للحظة، قبل أن تشير بيدها إلى المسلة قائلة:

. أنا اعتذر منك بشدة فأنا مقيدة بجدول زمني لإنهاء موضوع بحثي في المعبد، ولا استطيع التخلف عنه.

أومأ حسام برأسه متفهما:

. أنا آسف لإزعاجك، لكن تلك هي الأوامر

نهض من جلسته، وتبادلا معا أرقام الهواتف، وذهب حسام في طريقه.

بينما أتى عم سمير مودعا حسام:

. مع السلامة

فرفع حسام يده في صمت لتحيته..

نهضت سارة من جلستها، وهى تنفض بعض الغبار عن ملابسها المتسخة، وهمت بالعودة إلى السقالة مرة أخرى.

. يا دكتورة تلك المعابد التي تدرسونها ظاهرة لعيون الناس منذ زمن بعيد وكتب لها آلاف الدراسات، لكن هناك تاريخ آخر تحت الأرض لم تره عين ولم يكتب عنه أحد، ينتظر بصبر فارغ ليرى النور

توقفت سارة عن صعود أول سلم، ونظرت بحيرة إلى عم سمير:

. لقد سمعت الحوار؟!

. لا، لكن الحقيقة أنا كهل تجاوز سني الستين عاما والأستاذ الذي كان معك هيئته تدل على أنه ضابط، وليس من الصعب أن أخمن سبب وجوده مع كل ما نراه في التلفاز عن الحرائق التي تشتعل دون سبب كل يوم

. لقد قطعت وعدا لوالدتي أن أعود لها بعد أسبوع، لا استطيع أن أنكث ذلك الوعد

ثم تنهدت وأشاحت بوجهها، تنظر ناحية فوج من السياح:

. أنا أفضل دائما أن أعمل مع فئة معينة من الناس، حتى أستطيع التواصل وتقديم أفضل ما عندي، وكان من الواضح على حضرة الضابط أنه شخصية مسيطرة، شعرت أنه كان مجبرا على التعامل معي

كان حسام كالكتاب المفتوح أمامها، قرأت كل أوراقه وحواشيه... كان الموضوع جديدا كليا عليها.. لكنها كانت متيقنة أنها على صواب في حكمها ورؤيتها.

قاطع سمير أفكارها:

. يا بنيتي إذا صمم كل واحد منا على اختيار الأشخاص الذين سيعمل معهم، فلن يعمل أحد، لقد مر على الكثير من الأشخاص في المعبد هنا، ولو كنت فعلت كما تقولين، لتركت عملي في المعبد منذ زمن نتيجة سوء المعاملة، لكن روحي قد وجدت راحتها هنا

وجدت في كلام ذلك الرجل الكهل الكثير من المنطق والحكمة، هزت رأسها موافقة:

. كلامك صحيح

وابتسمت له لتتابع كلامها:

. منذ أتيت هنا، وأنا أسمع الكثير من الحكمة في كلامك كل يوم، عموما من المؤكد أنه سيتصل طلبا للمساعدة، وقتها سأطلب منة المشاركة في القضية

ابتسم سمير، وتسلقت سارة السقالة لتستأنف عملها.

الفصل العاشر

سلك حسام طريق الخروج سريعا.

كان رأسه منشغلا بما دار في الحوار وأدار مفتاح التشغيل، وإبراهيم ينظر إليه في تعجب دون تعليق لكنة استدار وانطلق بالسيارة في صمت.

مر من الوقت عشر دقائق، لم يفكر إبراهيم أن ينبث بكلمة واحدة، كان متأكدا أن شيئا ما قد حدث أغضب حسام، عندما ينجلي غضبه سيتكلم ويخرج ما بداخله، تلك هي الحكمة التي اكتسبها خلال عمله معه.

الصمت أفضل الأصدقاء.

اكتفى بالنظر إلى النافذة، وتأمل الشوارع المزدحمة.

توقف حسام بالسيارة إلى جانب أحد المحال الصغيرة.. يبيع ملابس الفلكلور الصعيدي كالجلابيب والعصا والعمم للسياح، ترجل من سيارته، وهو يشير إلى إبراهيم ليتبعه.. دخلا إلى صاحب المحل، طلب منه حسام زوجا من الجلابيب الصعيدية لهما، التي تناسب مقاسهم، كما اشترى إبراهيم غطاء رأس صعيدي أحكم لفتها على رأسه جيدا كمن فعلها مرات عدة، كل منهما ذهب في مهمات كثيرة للتحري بعض منها في الصعيد مما ساعدهم على إتقان اللهجة والاندماج سريعا بين أفراد المجتمع.

كان الطريق إلى القرية قصيرا، لكنه كان كافيا لحسام لإخبار إبراهيم بما حدث في المعبد، واتفقا على الشخصيات التي سيلعبها كل منهما أمام الناس، سيظل كل منهما باسمه.. وسيكون إبراهيم

مساعده.. سيحلان كضيفين عند العمدة، وسيخبران الجميع أنهما تجار من سوهاج جاءوا لشراء محصول القصب.

سلك حسام الطريق الزراعي متجها إلى القرية يحيط به من الجانبين حقول القصب والكثير من المزارعين الذين عكفوا على تحميل المحصول في سيارات نقل إلى مصنع السكر...

كانت الساعة قاربت الثانية والنصف ظهرا عندما دخلا القرية.

كانت قرية مثل كل القرى في صعيد مصر.

طرق ممهدة بالتراب لا الأسفلت.

الكثير من المطبات والحفر.

مجرد المرور عليها بالسيارة تعطيك إحساس ألعاب مدن الملاهي التي تقفز بك عاليا ثم تصدمك بالأرض، فتفتت عظامك وتحول السيارة إلى قطعة خردة!

أطفال يلعبون في الأرض بعضهم لا يرتدى ملابسه.

مروا في طريق ضيق تحيط به حقول قصب السكر مرة أخرى من الناحيتين.

ثم عبروا كوبري صغير المسافة لا يحمل سوى سيارة واحدة مجرى مائي، تجمعت فيه الأطفال حول شخص يحاول تنظيف بقرته في مياهه الجارية!!

ويطل على ذلك المجرى الكثير من منازل القرية، لم تكن تلك المنازل من الطين والقش كما اعتادت أن تصورها السينما.

القليل فقط احتفظ بأصالته لضيق ظروف ساكنيه، وأما باقي المنازل على الشكل العصري بنيت من الطوب والأسمنت.

بل احتوت بعض بلكونات تلك المنازل على ديكورات في الحوائط، ومكيفات هواء!

توقفت السيارة أمام أحد المنازل الكبرى في مدخل القرية، ترجل حسام من السيارة مخرجا هاتفه ليتصل بعمدة القرية متجنبا سؤال أحد من أهل القرية فيثير الشبهات والشكوك حوله.

استند بظهره على مقدمة السيارة بينما ضرب الهواء جلبابه الفضفاض، فشعر ببرودة خفيفة تسرى في جسده رغم سخونة أشعة الشمس الساقطة على وجهه.

ترجل إبراهيم من السيارة واستند بظهره أيضا على مقدمة السيارة بغية سؤال حسام سؤالا جال في عقله طوال الطريق عن تفصيلة أهمل حسام ذكرها:

. ماذا ستخبر اللواء منصور عندما سيسألك عن تلك الدكتورة؟!

نظر حسام في اتجاه تلك الحقول الخضراء الممتدة أمام عينيه بلا نهاية، مستغرقا في التفكير فقد كانت إجابة تلك السؤال تشغل تفكيره، هل سيتقبل اللواء منصور الرفض.

بالطبع لا.

فهو يعرفه جيدا، رجل سمعته تسبقه.. حسام يثق بداخله أنه إذا أراد إقناعها بالمجيء لكانت الآن في السيارة معهما، لكنه لم يبذل مجهودا كفاية في ذلك.

أراد الحرية والسرعة في التحقيق، وهو يراها عائقا مادامت ستمكث معهم.

أما اللواء منصور إذا كان يريد إشراكها في التحقيق، فعليه أن يقنعها بنفسه... تذمر داخلي بدا يطفو في نفس حسام اختلط بعناده الشديد الذي يظهره كلما احتاج الأمر لذلك.

أمسك جلبابه ووضعه بين قدميه لمنع الهواء من التحكم به، ونظر إلى إبراهيم الذي انتظر دقيقة كاملة من الصمت ليحصل على إجابة سؤاله:

. سأخبره بما حدث بالضبط، إذا أراد إشراكها في القضية فعليه إقناعها بنفسه

مرت عدة دقائق وظهر العمدة رمزي بجلبابه الضيق عند البطن، يمشى بخطى واسعة ومسرعة ناحية حسام.

كان العمدة رمزي هو كبير عائلة النصايرة، أسمر الوجه ذو بطن بارز وممتلئ، في الخمسينيات من عمره.

ورث العمودية من والده ليضمن بقاءها في عائلته بعد أن وافق غالبية أهل القرية.

لم يكن رمزي نزيها كليا، فقد شارك في تهريب بعض القطع الأثرية لجني المال دون إثارة أي شكوك، وهو يعلم تماما كل شخص في قريته ممن عثروا على دفينة أثرية وباعوها.

إلا أن الوضع تلك المرة مختلف وخرج عن السيطرة بالنسبة إليه، تلك الحرائق والوفيات من أهل قريته، وضعته في موقف لا يحسد عليه كعمدة.

المسألة عنده أصبحت متعلقة بمنصب يجب ألا يخرج من عائلته مهما يكن الثمن.

أصبحت القضية دفاعا عن منصب هو زينة للطامعين، وعار قد يلتصق بعائلته إلى الأبد إذا ثار أهل القرية ضده.

تلك القرية الصغيرة التي لا تبتعد كثيرا عن الأقصر تتحكم فيها ثلاث عائلات ككل قرى الصعيد، أكبر تلك العائلات هي عائلة النصايرة التي يكبرها العمدة رمزي.

وعائلة الجبراوي التي تنتهز الفرص لتثير أهل القرية على العمدة لأتفه الأسباب، الكثير منهم يمتلك حصص مالية كبيرة في البنوك، أغلب تلك الأموال جاءت من المتاجرة في القصب والقمح والآثار، وبالطبع عندما بدأت تلك الحوادث في القرية كانوا أول المنقلبين والشاكين، ووصل الأمر أنهم اتهموا العمدة علانية أنه لا يستطيع إدارة الأمور.

فحدثت مشاحنات فردية بين أفراد العائلتين عدة مرات، تنازلت فيها عائلة النصايرة فقط لحين الانتهاء من مشاكل القرية.

أما عائلة الفرارين، فقلة عددهم وتواضع أغلب أفرادهم ماديا جعلهم غير مؤثرين كثيرا كعائلة الجبراوي والنصايرة، أدرك الحاج سعيد كبيرهم أنه لا أمل في العمودية، مع وجود منافسين ذوي نفوذ مالي وعددي كبير، فآثر مساندة رمزي وعائلته في العمودية، حتى لا يخسر تجارته معهم أو هذا ما أقنع به أفراد عائلته، لكن في الحقيقة لم يكن ضعف عائلته هو ما منعه من المنصب، بل لأن طموحه كان جمع المال أكثر من تولى ذلك المنصب.

وباقي أهالي القرية عائلات صغيرة مسالمة أغلبها يعمل بزراعة القصب.

كان رمزي رغم قلة ذكائه الذي تستشعره من الوهلة الأولى لتعاملك معه مدركا لكل تلك الأطماع المحيطة به، لذلك قرر التعاون مع

الشرطة رغم أنه كثيرا رفض ذلك خاصة في مشاكل الثأر العائلي، فأطلق عيونه وآذانه من الخفر التابعين له وأفراد عائلته المقربين في كل القرية لجمع أي معلومة تفيد في حل الكارثة التي أصابت قريته.

عندما وصل إلى سيارة حسام كان يلهث من المسافة وكل جرام من الدهن في جسده الممتلئ يهتز.

رحب بحسام وإبراهيم باستعجال:

. أهلا بكم في القرية يا معالي الباشا، كنت أود أن يكون مجيئكم في ظروف أفضل من تلك

. شكرا يا حضرة العمدة

تململ رمزي في الكلام قليلا حتى مر بجانبه رجل يحمل على دابته بعضا من محصول قصب السكر، رفع يده لتحية العمدة ومن معه، ومر وهو ينظر بريبة إلى حسام وإبراهيم.

. هناك كارثة حدثت منذ ساعة يا حضرة الضابط، لقد انقلبت القرية رأسا على عقب، ويبدو أننا سنرى أياما سوداء

. ماذا حدث يا حضرة العمدة؟

فاقترب رمزي من حسام حتى يتأكد من أن لا أحد يستطيع سماعه غيره.

. المشكلة أصبحت أكبر كثيرا من الحرائق، ما حدث درب من الجنون

حسام وقد أدرك أن رمزي من النوع الثرثار، فزفر في ضيق قائلا:

. فقط أخبرني ما حدث يا عمدة؟

ازدرد رمزي لعابه بصعوبة وهو ما زال يلتقط أنفاسه:

. منذ عدة ساعات، شاب اسمه علاء من عائلة الفرارين، مشهور بسمعته الطيبة ودائما يهتم بأموره ولا يحب المشاكل، قد ركبه الجن وتهور على زوجته ووالدته بالضرب ثم خلع كل ملابسه وجرى في شوارع القرية عاريا وهو يهلوس ويصرخ

. شخص أصابه الجنون يا عمدة، ما علاقة هذا بقضيتنا؟

. دعني أكمل لك كلامي لتفهم، بعدها اختفى، فبحث عنة أهل القرية حتى وجدوه قد قتل إحدى البهائم، وجلس إلى جانبها يأكل لحمها نيئا بدم، وأصبحت تخرج منه أصوات غير طبيعية، ذعر أهل القرية وقيدوه بالحبال ثم أخذوه إلى شيخ المسجد واحتجزوه هناك حتى لا يؤذى أحدا

نظر حسام إلى إبراهيم، فتولى دفة الكلام:

. من الممكن أن يكون الرجل أصيب فعلا بالجنون يا عمدة، ومشكلته ليست لها علاقة بالجن ومشاكل القرية

هز رمزي رأسه نفيا:

. مستحيل، علاء مشهود له بالتربية الحسنة والأخلاق، كل أهل القرية يشهدون له بحسن السيرة

ثم ابتلع ريقه وأكمل:

. وحتى لو افترضنا أن ما حدث له ليس له علاقة بما يحدث في القرية، لكن الناس ستربط كل ماحدث ببعضه

رمق حسام إبراهيم في ضيق، ثم أشار للعمدة ليركب السيارة، التي سلكت عدة طرق بين المنازل لا تصلح لسير السيارات، كانت الشوارع شبه فارغة تحت وطأة الأحداث المشتعلة، وصولا إلى دوار العمدة.

ركن حسام السيارة خلف المنزل حتى لا يلاحظها الكثيرون، وحمل حقيبته في يده يتبعه إبراهيم في الخلف، بينما ينهال عليهم العمدة بعبارات الترحيب حتى وصلا إلى باب المنزل حيث يمكث مبنى صغير للخفر بالسور والبوابة.

صاح العمدة مناديا عرفان رئيس الخفر من عائلة الفرارين، زكاه رمزي إرضاء لعائلة الفرارين التي وقفت بجانبه، وآمن له دخول المنزل والتعامل مع حريمه على خلاف باقي الخفراء الذين تعاملوا مع رمزي فقط، كان الرجل قوي البنية ينتشر الهباق في وجهه ويديه، ويغطى رأسه بالعمامة، غطاء الرأس المعروف في الصعيد.

انتفض عرفان من مجلسه واتجه مسرعا ناحيته رافعا إحدى يديه لتحية العمدة وهو يمسك باليد الأخرى سلاحه كأنما يمسك برهينة حرب.

. أحمل الحقائب من الضيوف وأدخلها إلى المنزل، ثم أخبر النساء ليعدوا الطعام

أومأ برأسه، وتناول حقائب حسام وإبراهيم واتجه بخطوات سريعة إلى المنزل فتح بابه واختفى داخله.

بينما لم يتوقف رمزي عن الكلام، رفع يده وهو يشير إلى حقول القصب:

. هناك نقص شديد في العمالة حتى أننا لم نجد عمالا لجمع محصول القصب وشحنه في سيارات النقل، أنت تعلم أننا في موسم كسر القصب.. والسبب في ذلك أن الكثير منهم غادر البلد خوفا على حياته، والعمال من خارج القرية يرفضون القدوم للعمل خوفا مما يحدث فيها

التزم حسام الصمت، بطبيعته لم يحب الكلام الكثير خاصة لمن لا يعرفهم جيدا حتى يقرأ تفاصيلهم، كي يعرف نقاط الضعف التي يستطيع أن يخرج منها ما يريده من معلومات، بينما اندمج إبراهيم في الحديث معه بلهجة صعيدية متقنة:

. قل لي يا عمدة، هل تشك في شخص بعينه أن يكون وراء ما يحدث؟

. الشخص الذي يفعل ما يفعله بالقرية، لابد أن يكون معه شيخ من الشيوخ المغاربة، حتى يستطيع أن يصنع سحرا للقرية كلها، لذلك قمت بالاتصال بأحد معارفي ليتواصل مع الشيخ فتوح الزيدي ليأتي إلى القرية، ربما يجد لنا حلا

نظر حسام بطرف عينه إلى رمزي مع إحساس باحتقار داخلي، لكنه من الخارج تظاهر بالاهتمام بكلام رمزي حتى يسترسل في حديثه.

بينما استطرد إبراهيم كلامه وهو يرفع جلبابه ليتسلق درجات السلم التي تسبق باب المنزل:

. ومن يكون الشيخ فتوح الزيدي؟

كان رمزي يشبه طفلا ساذجا في العاشرة من عمره وهو يتكلم بحماسة مختلطة بقليل من الفخر النابع من معرفته بفتوح:

. الشيخ فتوح أفضل من يتعامل مع الجن والأعمال السفلية، رجل مبروك، حل الكثير من المشاكل هنا وفى القرى المجاورة

بالطبع تجنب إخبارهم أنه أحضره أكثر من مرة لإخراج بعض القطع الأثرية للمتاجرة بها، ولكن لم يكن من العسير على حسام وإبراهيم أن يخمنا كيف تعرف عليه رمزي.

جلس ثلاثتهم على كراسي الصالون الذي يحتل ركنا في صالة المنزل.

كان منزل العمدة ضخما يعكس ثراءه، بعد السور حديقة مفتوحة من الأشجار الضخمة التي تفرش ظلالها على أجزاء من البيت وحديقة المنزل، ومن الناحية الشمالية المنزل مفتوح بلا أسوار على زراعات القصب التي يمتلكها، كان منزله قديما يشبه السرايا لكن به بعض مظاهر الحداثة التي أضافتها زوجاته بالطبع كالدهانات الحديثة وبعض الورود والنباتات ذات الألوان الفاقعة التي رسمت على حوائط الشرفات، جعلت شكله غير متناسق وأتلفت الطراز التقليدي الذي بني عليه قديما.

أما من الداخل فيفتح بابه على صالة واسعة تصل منها إلى أي مكان في المنزل، في جانبها الشمالي سلم خشبي واسع طرفه يستند على الحائط والطرف الآخر ذو درابزين خشبي قديم طلي بدهان بني حديث، يؤدى ذلك السلم إلى الدور العلوي وهو الدور الخاص بزوجات العمدة.

نعم فالعمدة متزوج من زوجتين، مما خلق بينهما سباق دائم فيمن سيجلب له أكبر عدد من الأبناء.

عفاف تكبر سهير بسبعة أعوام ومع ذلك كلاهما لديه من الأبناء أربعة، أي أن العمدة لديه ثمانية أبناء نصفهم من الأولاد والنصف الآخر من الفتيات!!

ذلك يعتبر مصدرا للفخر، كثرة الأبناء دليل عن العزوة والقوة ورمزا للرجولة.

يلزم كل هذا العدد شخصية مسيطرة، وهو ما جعل رمزي رجلا عصبيا ومخيفا لزوجاته وأبنائه على عكس ما يظهر من شخصيته، لا كلمة تعلو على كلمته.

تناول ثلاثتهم غداء فخما، وزعت أمامهم أنواع عدة من الأطعمة، كان العمدة مضيافا وكريما للغاية تلك الصفات التي يشتهر بها أهل القرى في صعيد مصر.

مر اليوم ببطء وهدوء في القرية، على عكس ضوضاء وازدحام القاهرة.

مكث حسام في غرفته فترة كبيرة، لترتيب أفكاره وبالطبع الاتصال بـ هبة التي ردت في الاتصال المائة، كان الأمر أشبه بمعركة حربية، كان فيها حسام طرفا صامتا لا يملأ أعماقه سوى التعجب من ردودها التي حملت اتهامات له لم يخطر على باله أن يكون محلا لها يوما ما.. وفي نهاية تلك المعركة استخلص حسام منها السبب الرئيسي لتلك المشكلة.

كان أصدقاؤها قد رتبوا لعمل حفلة صغيرة لها وله في النادي، وقد اضطرت للاعتذار وألغى أصدقاؤها الحفل، كان ما حدث مصدر إحراج كبير، وبطبيعتها لا تستطيع أن تغفر ذلك، كبرياؤها لا يسمح.

هبة تولى اهتماما كبيرا بمظهر شخصيتها أمام كل من تعرفهم، وخذلان حسام لها كان ذنبا لا يغتفر بالنسبة لها، لأنه زعزع ثقتها وشخصيتها.

كانت مشاعره مختلطة، فهو يرى أن لديها كل الحق لتغضب، لأنه وضعها في موقف محرج، لكن ليس بيده حيلة فهو يؤدى عمله.

وفي المستقبل عندما تصبح زوجته سيكون عليها قبول ما هو أكثر، وأن تتنازل كثيرا دون تذمر.

بطبيعته لم يكن الرجل الذي يستجدى امرأة من أجل الغفران، خاصة إذا كانت لديه مبررات عقلية تمنع ذلك!

أغلق كلاهما الخط دون أن يصلا للصلح، وكرامته أبت عليه أن يتنازل، كان مقتنعا أنه فعل عمله وواجبه.

وهى كانت مقتنعة أنه كان بإمكانه الاعتذار عن المهمة، لكنه يبحث عن الترقية لا أكثر.

وبالطبع لم يكن ينوى أن يعيد الاتصال بها، سينتظر عودته إلى القاهرة حتى يحل تلك المشكلة.. لم يكن يريد أي مشتتات عن القضية التي يعمل عليها.

أنهم النساء، كونك تتعامل ليلا ونهارا مع الخارجين على القانون لا يعطيك شهادة خبرة في التعامل معهم.. فالخطأ الصغير بالنسبة لهم هو جريمة لا تغتفر، وأن حدث الغفران لا يمكن أن تختفي تلك الجريمة في ثنايا الذاكرة وتجد طريقها إلى النسيان، بل أن ذاكرة النساء بلا ثنايا فهي تغفر ولا تنسى!!

أرخى جسده على كرسي يقابل شباك صغير في غرفته يتأمل الحقول الخضراء ورياح شتوية تضرب الزراعات الممتدة أمامه فتحركها كأمواج البحر، أدخل عدة دفعات من الهواء في رئتيه في محاولة لتصفية ذهنه.

مر الوقت دون أن يدري، تجول داخل رأسه ليبحث عن ذكريات مهامه السابقة.. كان يفعل ما يحلو له.. يغادر ويعود وقتما يشاء دون الحاجة إلى تبرير الأسباب أو حتى إخبارها لأبيه أو أمه.

يبدو أن أيام الحرية قد ولت ولن تعود.. كان يصم أذنه مما كان يقوله أصدقاؤه المتزوجون ويحسدونه عليه.

ماذا كان سيفعل.. أبوه يعانى قلبه الضعيف، الأطباء أخبروه بخطورة حالته.. لم يجد في راحته سوى إسعاده وينول رضاه بإنجاب أحفاد صغار كما كانت تردد أمه التي تريد له الاستقرار السريع.

تربى مع هبة منذ نعومة أظفاره حتى تباعدت الدروب بينهما.. ذهب هو لكلية الشرطة وذهبت هي لكلية الألسن، ومن يومها تغير الكثير.

أصبح لا يملك الوقت ليراها، وانشغلت هبة بأصدقاء الجامعة وأصدقاء النادي.

أربعة أعوام تغيرت هي وتغير هو، لكنها في النهاية تظل أكثر فتاة اختلط معها، وابنة خالته التي يعرفها منذ الصغر.. أو كما كان يخيل له عقله!

وزادت فوق الأربع سنوات عشر سنوات أخرى!

كرس فيها كل وقته لعمله كضابط، حتى ترقى بسرعة البرق من رتبة ملازم إلى مقدم.. لم يكن لديه إلا القليل لوالدته ووالده، لا يعرف طريق النوادي والمنتزهات، ولا يسهر على المقاهي ليلا مع أصدقائه.

حياته هي عمله..

دقت الساعة في منزل العمدة خمس مرات لتعلن الخامسة عصرا، سمع حسام طرقات على بابه:

. ادخل

دلف إبراهيم إلى غرفة حسام، نظر إليه حسام نظرة سؤال دون أن يتكلم، استقبلها منه إبراهيم كالكلمات المنطوقة سهلة الفهم، فقال له:

. هناك مراسلون لمحطة تليفزيونية يصورون في بيت الولد الممسوس، الذي تكلم عنة العمدة رمزي عندما التقيناه صباحا

ابتسم حسام ابتسامة صفراء له ردا على كلمة

"الممسوس" التي قالها، فحك ذقنه واعتدل في جلسته ليواجه إبراهيم:

. هل تصدق هذا الهراء يا إبراهيم، بعد كل ذلك العمر في سلك الشرطة تنطوي عليك تلك الخرافات؟

• تلك الحرائق من الممكن أن تكون بفعل فاعل، لكن ما قصه العمدة علينا شيء من اثنين، إما لعنة الفراعنة أو جن قد مسه

تناول علبة السجائر من أعلى المنضدة، أشعل واحدة سريعا.. نافثا دخانها في مواجهة الهواء القادم من الشباك واردف قائلا:

. اذهب لمكان التصوير وتكلم مع الناس، أعلمني بما سيذاع على التليفزيون، وحاول أن تعرف من تواصل معه وأخبرهم بحادثة الولد، لم يمر سوى ساعات على حدوثها من فعل ذلك لابد أنه سيستفيد منها

. في الغالب أنه أحد المخبرين الذين يتواصلون مع الصحافة من أجل المال

. أو أنه شخص يريد أن تنتشر تلك الأنواع من الأخبار ليحقق غرضا في نفسه

هز إبراهيم رأسه موافقا، بينما استطرد حسام:

. كما أريدك أن تحقق في أمر هؤلاء الأجانب الذين دخلوا القرية، ما هي جنسيتهم ومن الذي رآهم

. تمام حضرتك

الفصل الحادي عشر

جلست سارة في شرفتها المطلة على النيل في أحد فنادق الأقصر، تتناول شاي الخامسة عصرا، فتلك عادة مقدسة ورثتها من عائلتها.

وضعت أمامها على المنضدة بعض الصور والأوراق، تستغرق ثواني لكتابة بعض الملاحظات وساعات وهى تتأمل النيل.

ما حدث صباحا مع حسام يدفن في أعماقها لدقيقة ويطفو في عقلها لساعات، ما بين حب الاستطلاع وشغف المجهول يلتهمانها من الداخل كالنيران.

وحاجتها إلى الانتهاء من بحثها، واضعة جدولا صارما لمدة أسبوع.

إذا تخلفت يوما واحدا ستتأخر عن العودة إلى البيت، وما يرادف ذلك من مشاكل.

ياسمين قلقة على ابنتها، أمر أصبح غير مفهوم لسارة!!

لأنها لا تعلم حقيقة ما حدث لجدتها.

لقد عانت تلك الأسرة كثيرا بسبب تمسكها بالعمل في هذا المجال.

وياسمين لا تريد أن تعيش لترى ابنتها تعانى نفس الأمر.

منذ أن اختارت السير في ذلك الطريق وهى تقابل بقيود شديدة من والدتها، خاصة في ظروف السفر والحفائر الاستكشافية.

حاولت كثيرا احتواء قلقها، لكنها بدأت تشعر أنها كالطير المسجون في قفص، لا يستطيع الطيران إلا بداخل تلك الأسوار التي رسمت لها من قبل عائلتها.

رن جرس الهاتف ولم تكن في حاجة للنظر إلى اسم المتصل أو حتى تخمينه.. بالطبع هي والدتها تطمئن عليها، سردت لها تفاصيل اليوم لكنها بالطبع حذفت الجزء الخاص بحسام.

كان الشغف يقتلها، إنها فرصة ذهبية ومن الغباء إذا تركتها دون اقتناص.

شعرت فجأة بجرأة مندفعة تشجعها لتتحدث إلى والدتها في إمكانية السماح لها بالتأخر ثلاثة أيام، اختلقت سببا لحظيا من الهواء رغم أنها قبل المكالمة لم يخطر على بالها أن تجهزه.. تحججت بكثرة زوار المعبد.. وازدحامه في موسم الشتاء... ومشاكل في تصاريح العمل البحثي.

لم يكن رد فعل ياسمين غاضبا للغاية، فبعد حفنة من الكلمات مزدوجة المعاني، والتهديدات المبطنة التي تتقنها الأمهات.. سمحت لها بالتأخر في العودة إذا لم تنتهي من بحثها في الوقت المقرر.

ورغم ما تظهره اتجاه ابنتها ومقتها لمجال عملها، إلا أنها أرادت لها أن تنتهي من بحثها، وتحصل على لقب الدكتوراه، فمثل كل أم كانت تتمنى أن تفتخر بابنتها في وسط الجلسات العائلية، ونميمة الأصدقاء.

الجزء الأصعب بالنسبة إليها قد انتهى. ولم يبق لها سوى أن تتصل بحسام لتخبره أنها ستأتي لمساعدته في التحقيق.

تأملت هاتفها قليلا وبحثت عن اسمه.. توقفت أناملها الصغيرة من لمس كلمة اتصال ولسبب هي نفسها تجهله، قررت تأجيل المكالمة إلى الصباح الباكر.

لقد فهمت شعوره منذ اللحظة الأولى، فهو مجبر أن يشاركها التحقيق.

التطفل ليس من شيمها، لكن حب الاستطلاع، كالإدمان، يحمل لذة كبرى.. ذاقتها من قبل عندما تدربت مع جدها ستة أشهر.

حان الوقت لها أن تعمل وحيدة.. وتثبت نفسها.. تكتسب الخبرة وتصنع اسما يحترم مثل جدها.

أنهت بعض الكتابات والملاحظات التوضيحية وقررت الذهاب إلى النوم مبكرا.. كان يوما شاقا ومرهقا كما أنها تريد الاستعداد للغد، رغم كل الأسئلة التي كانت تسألها لنفسها منذ الصباح، كيف تمكنت من قراءة الهيروغليفية بكل سهولة؟!

كيف أصبحت تقرأ لغة جسد كل من تعاملت معهم؟!

كل هذا حدث منذ أن رأت ذلك الحلم.

لم تدم الأسئلة طويلا فقد كان النوم يغلبها بسبب شدة الإرهاق، أطفأت نور غرفتها واستغرقت في النوم سريعا، تاركة شرفتها مفتوحة لتدخل منها نسمات الليل الباردة.

كانت الساعة الثالثة فجرا.

المياه المتحركة في النيل تضرب المراكب الراسية فتحركها مصدرة صوتا مكتوما، ظهر ظل أسود بدا يطفو في الهواء دون معالم على طرف النيل المواجه للفندق.. تحرك بخفة مع صمت مريب أطبق على المكان كله.

ارتفعت تلك الظلال إلى غرفة في الدور الثاني، وأصبحت تلك الكومة تتشكل حتى كونت ظلا أسود لرجل ضخم، وقف على مدخل غرفة سارة من جهة الشرفة.

كان الشكل مخيفا.

عيناه الحمراوان كالدماء هما الشيء الوحيد الظاهر في ذلك الكيان الأسود، عينان فقط!! دون جفون عليا أو سفلى تغطيهما، ولا يظهر من باقي جسمه سوى يديه وقدمين دون تفاصيل.. كان الظل ينظر بتركيز شديد إليها وهى مستغرقة في النوم، وحدقتا العينان أخذتا في الاتساع.

تقلبت سارة في سريرها يمينا ويسارا.

وكأن شيئا يطبق على صدرها فلا تستطيع التنفس.. كل ما شعرت به أنها اختطفت في متاهة عالية الأسوار، كثيرة الاتجاهات تسمع في الخلف صوت زمجرة لأسد أو وحش لا تستطيع تمييز كينونته، تجرى بين انعطافات المتاهة محاولة الابتعاد عن مصدر الصوت في الوقت الذي بدأت فيه تشعر بعدم قدرتها على التنفس والركض أكثر من ذلك، كانت تعلم يقينا أنها في حلم داخل رأسها تحاول يائسة أن تستيقظ من النوم ولا تستطيع.

تحول جسدها إلى ميكنة لإفراز العرق رغم برودة الطقس.

بؤبؤا عينيها يجولان يمينا ويسارا تحت الجفون.

بدأت تزوم وتئن، كما لو كانت تحاول إبعاد حمل ثقيل يطبق على صدرها ولا تستطيع!

كانت تختنق.

عندما بدأ هذا الظل في رفع يده وتلاوة بعض الكلمات باللغة الهيروغليفية، وخطا داخل غرفتها ليقترب أكثر وأكثر من فراشها.

وهى تحاول التنفس.

بدأت في ضرب يدها وأقدامها على السرير، في حركات جنونية.

بدأ صوت الظل الأسود يعلو أكثر.. فظهر حبل سميك التف حول رقبتها..والحبل يضيق أكثر فأكثر.

فانحنت بالقرب من الأرض في تلك المتاهة وهى تضع يديها على رقبتها وتقاتل لتدخل الأكسجين إلى رئتيها حتى سقطت على ظهرها تنظر إلى السماء السوداء التي تغطى تلك المتاهة وقبل أن تغلق عينيها لتفقد وعيها لمحت ضوءا يشع في السماء.

في نفس الوقت في غرفتها..

كان أمامها أقل من الدقيقة لتفقد فيها حياتها.

وحتى إذا استيقظت في هذا الظلام الحالك

وهى وحيدة في غرفتها، لترى ذلك الظل الواقف عند طرف فراشها حتما ستموت من الخوف.

كانت مازالت تقاوم

وتقاوم...

تضرب أنحاء السرير الذي تحول لساحة معركة

تحاول التنفس من فمها

وهنا بدأ شيء آخر يحدث

بدأت تظهر قلادة على شكل مفتاح الحياة علامة غنخ حول رقبتها، فانقطع الحبل الذي التف سابقا ومنع الهواء عنها.

وبدأت أيدي ذلك الكيان الأسود تهتز وتنزل إلى أسفل، وكأن شيئا يجبرها أن تفعل ذلك.

ظهرت على وجهه ملامح الرعب وتراجع قليلا إلى الوراء فيما كانت تصدر تلك القلادة وهجا كالنار.

ثم صدرت قوة ضخمة من القلادة أطاحت بذلك الكيان وألصقته في الحائط، وهو يزمجر ويحشرج بصوت مخيف.

كان جسمه الضبابي يتفكك ويتلاشى تماما

وهو يقاوم ما يحدث له.

ما هي إلا لحظات حتى تبدد تماما في ظلام الليل.

وكأنه لم يكن!!

فانطفأ وهج القلادة، وبعدها اختفت من على رقبتها، وعادت للتنفس طبيعيا.

كأنها انفكت من الأسر واستيقظت وهى تصرخ، واضعة يدها على صدرها.. الذي كان يعلو ويهبط بسرعة كبيرة.

فركت عينيها وهى تنظر في الغرفة

تلك هي أول مرة تشعر بالخوف.

"ما الذي حدث لي؟ " سألت نفسها، البارحة كان حلم المعبد والكهنة، واليوم كادت أن تموت!!

أضاءت مصباحا صغيرا في مدخل غرفتها وتركته مضاء إلى الصباح.

لكنها لم تذق ولو دقيقة النوم.

قضت ليلتها وهى تنظر إلى سقف الغرفة بشرود، وعقلها مثقل بالأسئلة..

هل كان ما حدث حلما أم حقيقة؟!

ما شعرت به كان حقيقيا، لم يكن حلما أو هذيانا!!

الفصل الثانى عشر

الثامنة صباحا

خرج حسام من غرفته ليجلس على طاولة الإفطار مع العمدة رمزي، وإبراهيم.

استغل حسام تلك الطاولة في استخلاص المعلومات من رمزي:

. أخبرني يا عمدة متى بدأت تلك الحوادث بالتحديد؟

. بدأ كل شيء من أسبوعين، حيث احترق أول منزل، وقد اعتقدنا أنه وقيد "بقايا الحطب" الفرن، لكن الحرائق توالت في كل أنحاء القرية دون سبب واضح

. وقبل الأسبوعين، هل حدث أي شيء مريب؟

. بتاتا، كل الأمور كانت طبيعية للغاية

. ماذا عن الحوادث الطبيعية والمعتادة، هل حدث أي شيء مهما يكن صغيرا؟

. بعض المشاكل بسبب حصاد المحصول، وفلاح اختفى من شهر تقريبا، لكنى لا أظن أنه أي من هذا له علاقة بما يحدث

. لماذا؟ ماذا حدث له؟

. فلاح اسمه مرزوق، سيئ السمعة، ضبطته زوجته مع إحدى الفتيات في عشته البوص في الحقل، وفضحته في البلد كلها، وبسبب الفضيحة ترك القرية وهرب، كما أن الشرطة في مخفر القرية يعلمون قصته ورفضوا البحث عنه.

. ولماذا فضح الرجل وليست المرأة، مع أن الذي يحدث عادة هو العكس؟

. المرأة كانت غريبة من خارج القرية، لم يكن أحد يعرفها وهربت خارج القرية بعد ما حدث

. بخلاف ذلك، ألم يحدث أي شيء آخر؟

. لا لم يحدث أي شيء، أنا أصارحك بكل الحقيقة ولا أخفي أي شيء، حتى تخبر سعادة اللواء منصور أنني متعاون كليا معكم.

هز حسام رأسه وهو ينظر إلى إبراهيم، ثم رن هاتفه النقال

نظر إلى الهاتف وهو يعرف أنها من المستحيل أن تكون هبة.

على الأقل أنها لا تستيقظ باكرا.

فوجئ باسم آخر شخص لا يتخيل أن يتصل به.

إنها سارة.

فاستأذن من العمدة وخرج إلى فناء المنزل الخلفي، متمنيا ألا تكون قد غيرت رأيها في المجيء إلى القرية.

. صباح الخير يا دكتورة.. خير.. الحقيقة لا جديد حتى الآن.. لكن إذا علمت شيئا سأخبرك بالطبع.. بالطبع لما لا.. لكن على أن أخبرك أولا أن العمل في القرية أصعب مما تخيلته.. سأأتي لأقلك بعد ساعة فكوني مستعدة.

أغلق هاتفه في ضيق، فهو لا يريدها هنا، الأمر لم يكن كما تصوره في القاهرة.

لايريد من يشتته عن القضية، يكفيه ما حدث من مشاكل، وما ينتظره من مشاكل عند عودته للقاهرة.

إلى جانب أنه لم يكتشف شيئا بعد حتى تفحصه، لا يعرف لماذا يصر اللواء منصور على تواجدها.

دخل المنزل.. أخبر إبراهيم ورمزي أنه ذاهب ليجلب الدكتورة... مد يده ليأخذ مفاتيح السيارة من إبراهيم، موجها كلامه إلى العمدة:

. يا عمدة لا أريد أي شخص أيا كانت درجة قربه منك أن يعلم من نحن وماذا نفعل هنا

. عيب يا حسام باشا، نحن رجال لا نعرف الخوانة . يقصد الخيانة . أبدا

قاد حسام سيارته إلى ذلك الكوبري الصغير في مدخل القرية.

ومنه اتخذ طريق العودة إلى الأقصر.

في الطريق لم يكن أمامه سوى التفكير، بدأت الأفكار تنهال عليه تباعا، بداية من السؤال الكبير الذي تركه اللواء منصور معلقا دون إجابة، إلى خلافه مع هبة، والعبء الذي أضيف إليه في عمله متمثلا في سارة.. ندم أنه لم يصطحب إبراهيم معه في تلك الرحلة القصيرة ليونس وحدته.

توقف أمام الفندق، أخرج هاتفه ليتصل بها لكنها بالفعل كانت بانتظاره أمام الفندق، وقفت لتدق على زجاج السيارة، فتح باب السيارة وترجل منها ليلتف الناحية المقابلة، حمل حقيبتها الثقيلتين من وزن الكتب ووضعهم في الكرسي الخلفي.. بينما فتحت هي الباب الأمامي وجلست على كرسيها.

أغلق الباب الخلفي لسيارته وركب في مكان السائق.

سارة نظرت إليه بتعجب لما كان يرتديه، لكنه فهم تلك النظرات:

. عيناك تتحدثان بصوت عال عن مظهري

. الحقيقة شكلك تغير كثيرا عن البارحة، لكن بالطبع نظرتك وشعورك تجاهي لم يتغيرا

ترك المقود من يده، ونظر إليها نظرة مطولة قبل أن يتكلم:

. وكيف تعلمين بشعوري وقراءة نظراتي وأنتِ لا تعرفيني

. لا أعلم، أنه إحساس داخلي، وذلك الإحساس لم يتعلم الكذب بعد

تنهد حسام واستدار مواجها عجلة القيادة وأدار مفتاحها، لكي يمنح نفسه وقتا فيغير موضوع الحديث، لأنه كان يعلم أنها محقة، فكر في نفسه ربما عليه أن يحترس من إظهار ما يشعر به، تلك تعتبر كارثة في عمله، فتكلم وهو ينظر إلى الطريق:

. الأمس عندما تكلمت معك لم أخبرك بكل تفاصيل المهمة لأنك رفضت الموضوع من البداية، لكن بما أنك غيرت رأيك عليك أن تعلم بكل شيء.

التزمت الصمت، لتسمعه.

. نحن في مهمة تحري، لذا فلا أحد من أهل القرية يعلم من نحن وماذا نفعل، حتى نجمع كل ما نريده من معلومات بحرية

. وما الدور الذي سألعبه؟

. سيكون عليك تغيير مظهرك ولهجتك كما يتحدث أهل القرية، نحن نقيم في بيت عمدة القرية وهو الوحيد الذي يعلم من نحن وماذا نفعل، بخلاف العمدة نحن تجار أتينا لنشتري محصول القصب، وأنت

ستكونين أختي أمامهم وإبراهيم أمين الشرطة الذي يرافقني هو مساعدي

صمتت قليلا، لم يكن ما قاله في توقعاتها، لكنها انتبهت لشيء ما:

. كوني أختك سيثير الكثير من الشكوك، فما السبب الذي سيجعلك تصطحب شقيقتك معك لشراء محصول القصب، كما أنك لا تشبهني في الشكل.

فابتسم حسام بخبث قائلا:

. حسنا، لديك حق يمكنك أن تكوني زوجتي ولكن سيكون عليك الإقامة في غرفتي؟

فنظرت إليه وقد ضاقت عيناها، لأنها فهمت أنها حركة خبيثة منه، ومتأكد أنها لن توافق على تلك الصفة، لكنه قاطع تفكيرها وأكمل حديثه:

. كما ستحتاجين إلى خاتم زواج، يمكننا شراء واحدا مزيفا من أقرب مكان يصادفنا.

كان واثقا أنها ستتراجع عن تلك الفكرة وتختار أن تكون شقيقته، لكن احتاج أن يفعل ذلك ليبقيها تحت سيطرته، لكنها لم تكن من النوع الذي يخضع لسيطرة رجل، فقد رأت في نفسها أنه يتحداها، كما لمحت في يده خاتم الخطوبة منذ لقائهم الأول، فكان ردها سريعا ورعديا، رسمت فيه الكثير من العفوية واللامبالاة، لتكسر سيطرته عليها:

. حسنا، لقد مررت بمتجر للإكسسوارات قريبا من هنا سأختار خاتما منه، ولكن سيكون عليك أن تبدل خاتم خطوبتك من يد

لأخرى، أتمنى إلا تنزعج خطيبتك من ذلك، بالرغم أنه يبدو أنك لم تعتاد بعد على مكانه في يدك.

نظر إليها حسام بوجه مقتضب، ضاغطا على أسنانه بقوة من الغيظ، وهز رأسه مستفسرا منها دون كلام كيف عرفت بكل ذلك:

. أووووه، أنت تريد أن تعرف كيف عرفت، كان واضحا في لقائنا الأول، لقد لمست خاتمك باستمرار تديره يمينا ويسارا.

تنفس ببطء، ونظر إلى الطريق عدة مرات، لا يجد كلمات ليضيفها إلى حديثهما، فقد كان يبدو كمن صدمه جرار زراعي، وبعد عبورهم عدة شوارع توقف أمام متجر للملابس، وأطفأ محرك سيارته محدثا إياها دون أن ينظر إليها:

. سيكون عليك شراء ملابس كملابس نساء القرى

. لا مشكلة، في الحقيقة هي أجمل كثيرا مما نرتديه نحن أهل المدينة

بعدما انتهيا من شراء كل ما يلزمهم، تركا الأقصر إلى مقصدهما، كان الطريق إلى القرية طويلا، ساد أغلبه الصمت.. بعد أن أخبرها حسام بكل تفاصيل القضية.

استغلت هي تلك الدقائق في القراءة.. فتحت حقيبتها وأخرجت إحدى الكتب لتقرأ.

لم تكن هي من محبي كثرة الحديث.

ولم يكن هو متوقعا جرأتها..

الفصل: الثالث عشر

احتوى دوار العمدة على الكثير من الغرف، فلكل زوجة غرفة خاصة بها، وغرف أولاده، وغرفة له يرتاح فيها منهم.

خصص لها العمدة غرفتها المنعزلة، بناء على طلب حسام منه، فهو بالطبع لم يكن ليقبل أن تقيم معه في غرفة واحدة.

كما أخبر رمزي بالغطاء الذين سيتخذونه طوال فترة بقائهم هنا، كان حسام طوال الطريق يفكر في كلمات سارة بأنه لن يقتنع أحد بوجود أخته معه، وأن غطاءها كزوجته أكثر إقناعا وقبولا، فأخبر العمدة أن يلتزم بالخطة وهى أنه تاجر للقصب وإبراهيم مساعده وسارة زوجته، في حال سأل أحدهم على ضيوفه.

ولم يكن من العسير عليها ملاحظة ضيق حسام من رمزي، والمعاملة الجافة التي جاهد إلا يظهرها، لكنها لم تكن تعلم السبب.

كان حسام يحب الطرق المستقيمة، كما أنه كان على يقين أن رمزي تاجر في الآثار أكثر من مرة، ولولا ظروف القضية الاستثنائية، لكان رمزي هدفا له وقضية يحقق فيها، لكن ضغط اللواء منصور، وتنازل العمدة في التعاون مع الشرطة منعه من كل ذلك، بالطبع النفوس لا تغير ما يكمن فيه.

انتهى كل شيء عندما دخل إبراهيم إلى غرفة المكتب، موجها كلامه إلى سارة:

. قد انتهى تجهيز غرفتك، يمكنني اصطحابك إليها

وأشار بيده إلى باب الغرفة، فنهضت سارة من كرسيها مسرعة وهى تتبع إبراهيم إلى غرفتها.

اختفت فيها أربع ساعات تعمل على حاسوبها المحمول، تحاول جمع ما تستطيعه من معلومات عن تلك القرية، متجنبة النزول إلى ساحة المنزل فقد شعرت بالغربة، والقليل من الندم لتركها الفندق وعدم إخبار والدتها بما تفعله!

حتى قاربت الرابعة عصرا وكان حريم العمدة يعدون الغداء على طاولة الطعام.

حدثت جلبة كبيرة بالخارج، صراخ.

خرجت من غرفتها ونزلت إلى بهو المنزل لتجد حسام والعمدة وإبراهيم يقفون على باب المنزل، وشخصا يصرخ للعمدة:

. النجدة يا حضرة العمدة، رجب وجمال أولاد عبد القادر رحمه الله، مسهم الجن، كما حدث مع علاء، أنهم يأكلون لحوم بعضهم تلك المرة.

لم تفهم سارة وقع الكلام، وظنت أن الرجل أخطأ في وصف الموقف.

فركض العمدة وإبراهيم وحسام في الشارع وراء الناس.

وركضت وراءهم...

كانت المسافة بضعة منازل حتى وصل العمدة ومن معه منزل رجب وجمال.

كان المنظر مرعبا، والدة رجب تصرخ وتندب، مستنجدة بالناس لينقذوا ولديها.

تضرب على خديها.

تشد في ضفائر شعرها الأشيب.

إلا أن الناس كانت تقف وتشاهد فقط دون أن يجرأ أحد على الاقتراب.

اكتست الأرض بالدماء، وجمال يأكل لحم يده بنهم شديد!

لا يشعر بأي ألم لما يحدث له.

يعض إحدى شرايين يده.. فينفجر الشريان مغرقا ملابسه بالدماء.

بينما رجب يأكل لحم قدم أخيه بتلذذ.

والدماء تسيل من بين أسنانه وشفتيه.

حدقتا عيناهما متسعة.

يهلوسان بأصوات مخيفة غير مفهومة، كلما حاول أحد الاقتراب.

ذلك السواد المخيف الذي حوط جفنيهما!

كانا يشبهان الحيوانات المفترسة، التي تنقض على فريستها.

وكان جمال ينزف بشدة فقد مزقت الكثير من شرايين يده وقدمه وحوله برك من الدماء.

كان الوضع يشبه مشاهدة فيلم لآكلى لحوم البشر فيما عدا أنه حقيقي جدا!!

صرخ حسام في الموجودين ليخرجهم من حالة الذهول:

. احضروا لي حبلا بسرعة.

ثم قفز على رجب الذي كان أكثر مقاومة من أخيه لأنه لم يكن مصابا، والتف حول ظهره مقيدا يديه.

ورجب يزوم ويزأر كالحيوان، يقاوم ويضرب الأرض بقدمه.

حتى قيده حسام جيدا بالحبال، وربطه في أحد الأعمدة الخراسانية بالمنزل، ثم وضع خرقة قماشية في فمه.

وإبراهيم انقض على جمال أمسك يديه ربطهما من أعلى نظرا لإصابته، إلا أنه كان يحتاج إلى الذهاب إلى المستشفى.

صرخ العمدة في الناس المتجمعة ليذهب كل واحد إلى منزله.

بعد أن أصيب بحالة من الرعب تدلى بسببها فاه لأسفل، وكان يزدرد ريقه بصعوبة.

انصرف أهل القرية واحد تلو الآخر ملقين على مسامع العمدة كلمات الاستنكار والشكوى مما زاد من غضبه وخوفه من ثورة ضده، خاصة بعد أن أخبره الكثيرون منهم أنهم سيتركون القرية.

أمر رمزي الخفر أن يمسكوا برجب ويحتجزونه في مسجد القرية إلى جانب علاء... وسط صوت صرخات والدته.. بينما تردد الخفر من الخوف.. فانهال عليهم بالشتائم وقد تناثر لعابه بغزارة في كل اتجاه ووجهه تحول للون البرتقالي من الذعر.. تحرك أحدهم وكان ضخم البنية، فك رجب من العمود الخرساني الذي ربطه به حسام وأحكم قبضته على يديه لكن رجب أسقط قطعة القماش من فمه واستدار برقبته وهو يزأر وتمكنت أسنانه المملوءة بدماء أخيه من رقبة الخفير، فانفجرت منها الدماء وارتفع صوت صراخه.

اتجه ثلاثة خفر مسرعين، أمسكوا به، وتناول أحدهم قطعة القماش من الأرض حشرها في فم جمال مرة أخرى.

بينما سحب رابع سلاحه ووجهه ناحية رجب في تحفز.

فصرخت والدته مترجية العمدة ألا يصيبه بسوء، وانهارت على الأرض وهى تندب وتضرب رأسها بيديها، تحرك حسام ناحيتها مسرعا

حمل إحدى الكراسي الخشبية وساعدها للنهوض من الأرض والجلوس على الكرسي.

ثم طلب من إبراهيم ليحضر كوبا من الماء، هرول مسرعا يبحث عن مكان المطبخ في المنزل.

أما سارة تسمرت في إحدى الأركان، تشاهد دون كلام ما يحدث، أغمضت عينيها لدقيقة حتى تتدارك الأحداث، فجاءت إليها رؤيا سريعة للأخوين رجب وجمال وهما يحملان بقايا محصول القصب إلى النيران في الحقل ليتخلصا منها كما اعتاد أن يفعل الفلاحون، كان الدخان يتصاعد للسماء، حتى انتهيا من حرق كل مخلفات القصب وخمدت النيران وحمل كل منهما فأسه وغادر الحقل.

ففتحت عينيها وتراجعت بغتة مما شاهدته، كأنها كانت معهما في الحقل.. لكنها فى الحقيقة لم تكن! فاصطدمت بالحائط خلفها مسقطة بعض لفات الثوم المعلقة في إحدى المسامير القديمة.

نظر إليها حسام، وقد ارتسمت على وجهها علامات الذعر والخوف، كانت تنظر في الجهة الأخرى شاردة الذهن، خمن بالطبع أن السبب هو ما رأته من الأخوين.

كان نصف حقيقي، كان السبب ما رأته لكن ليس ما حدث بالبيت أمامها بل ما حدث عندما أغمضت عينيها.

ما يحدث لها فوق احتمالها، وقد تأكدت أن هناك شيئا خاطئا بها، لم يكن الأمر كما ظنت مجرد ضغط عمل أدى إلى أحلام وكوابيس ليلية، أو تخمينات لما يفكر به الآخرون.

لقد رأت الماضي بعينيها، رأت ما حدث.

قطع أفكارها صوت إبراهيم موجها كلامه إلى أم الأخوين، وهو يقول:

. تفضلي الماء يا أمي.

تناولت المرأة العجوز كوب الماء، رشفت منه رشفات قليلة.

نظر حسام حوله ليتأكد أن الكل قد غادر عدا العمدة وسارة وإبراهيم، فوضع يده على كتف المرأة ليطمئنها:

. حسنا يا أمي..أريدك أن تحكي لي ما حدث بالضبط.

مسحت المرأة دموعها بطرف كمها، ونظرت إلى حسام:

. الذي حدث هو ما يحدث كل يوم، لقد كان أبنائي في الحقل يحرقون بقايا محصول القصب، وعندما عادا طلبا مني أن أجهز الغداء، لكن ملامح وجوههما كانت متغيرة عما اعتدته ظننت أنه إرهاق العمل طوال اليوم

فابتلعت سارة لعابها بصعوبة عند سماعها لكلام المرأة الذي يطابق رؤياها.

سكتت قليلا وهي تبكي، واستطردت:

. لقد غبت خمس دقائق فقط في المطبخ وعدت إليهم وجدتهم بالحالة التي رأيتموها الآن، فصرخت عاليا استنجد بالجيران.

وضربت كفيها بأرجلها وهي تبكي بصوت مرتفع.

حاول حسام تهدئتها، ومال عليها قائلا:

. لا تخافي يا أمي.. سيكونون بخير بعد الذهاب للمستشفى ولن يحدث ذلك لهم مرة أخرى.

عاد الجميع إلى المنزل.

فقدت سارة الكلمات، أخذت حصتها من الرعب ليلة أمس والآن رأت ما لم تتخيل أن تراه في أحلك كوابيسها، ما رأته في منزل الأخوين يكفي للبعض أن يعتزل مهنته، غير أن عقلها أصبح متخما بالأسئلة.

بدت كأنما أصيبت بصاعقة كهربية، حتى أنها فكرت بمجرد دخولها المنزل أنها مازالت تحلم في بيت أبيها وأنها لم تغادره قط وتأتي إلى الأقصر.

تلطخت ملابس حسام وإبراهيم بالدماء.

فاستأذن حسام للاغتسال وتغيير ملابسه، دون أن يصدر تعليقا عما حدث، اتجه إلى غرفته بسرعة، متفاديا النظر إلى أي شخص.

انزوى إبراهيم في ذهول إلى جانب عتبة المنزل، يحاول بينه وبين نفسه استيعاب ما حدث أمامه، فقد كان ذلك يفوق خبرته، لم تقابله في حياته أبدا قضية حدث فيها ما حدث اليوم.

طوال فترة عمله التي امتدت إلى أعوام، دخل فيها الكثير من المقابر ورأى جثثا لا حصر لها، سمع عن روايات مخيفة لأماكن أثرية مهجورة ولم يفت ذلك في عضده أو يحرك قلبه إنشا واحدا، لكن ما حدث اليوم كان فوق طاقته وتفكيره.

قطع دقائق الصمت الثقيل رمزي الذي تحول إلى مجنون يصرخ في زوجتيه بطريقة هستيرية ويأمرهم أن يحزموا الأمتعة، ليرسلهم هم وأبناءه إلى شقته في الأقصر.

ولم تكن عائلة العمدة فقط من استعدت لمغادرة القرية، ما حدث قد انتشر كالنار في الهشيم بين الأهالي المذعورة، وما أن حلت الساعة السابعة مساء، حتى كان بالفعل الكثير من أهل القرية حزموا ما نالته أيديهم من أغراض حملوها على الدواب، ليقيم كل منهم عند أقاربه في القرى والمدن المجاورة.

الفصل: الرابع عشر

جلس أربعتهم على الكراسي في الفناء الخلفي للمنزل المطل على الحقول الخضراء، بينما صب عرفان الخفير الشاي في أكواب زجاجية صغيرة، ثم ترك المكان للعمدة وضيوفه.

كان رمزي في حالة غضب، وذهول، محاولا لملمة شتات نفسه أمام ضيوفه حتى لا يفقد رباط جأشه، تناول كوب الشاي في وجوم، رشف منه رشفة صغيرة ظنا منه أنها تساعده على ابتلاع لعابه وتهدئته قليلا حتى يستطيع الحديث، وبعد أن تأكد من عدم وجود أي شخص تكلم بصوت مرتعش:

. يا حسام باشا، يجب أن تنقذوا أهل القرية مما يحدث، الكارثة أن ينتشر ما يحدث هنا إلى القرى المجاورة لنا، حينها لن تستطيعوا لملمة الموضوع

رد عليه حسام، وهو يتأمل الحقول بهدوء أعصاب جعل إبراهيم نفسه يشعر بالغرابة منه:

. عليك أن تهدأ يا عمدة، هذا وضع مؤقت

نظر رمزي إلى سارة، ليسألها بجدية، ارتسمت على كل قسمات وجهه:

. أريد أن أسألك سؤالا بجدية يا دكتورة، هل ما يحدث هنا يمكن أن يكون لعنة من الفراعنة أو سحر أسود؟

نظرت سارة إليه بقلق، قبل أن تجيب:

. الحقيقة يا عمدة، حتى إذا كان هناك لعنة للفراعنة، فلا تكون عقابا جماعيا بهذا الشكل، ما يحدث هنا هو حوادث عشوائية، إلا إذا كان جميع من تضرر من أهل القرية مشترك في سرقة شيء أثرى

فصاح إبراهيم متفاديا النظر لحسام لعلمه أنه لا يؤمن بتلك الأشياء:

. ماذا تقصدين بكلمة عشوائي يا دكتورة؟

. أقصد أن كل من ينقب أو يشارك في تدنيس أو بيع الآثار تناله تلك اللعنة لأنه شارك فيها، لكن ما يحدث في تلك القرية هو عقاب لأشخاص كثيرين في الغالب ليس لهم علاقة بالآثار

فابتسم حسام ابتسامة سخرية لاحظتها سارة، بينما كان إبراهيم والعمدة يستمعان إليها في تركيز.

وضع كوب الشاي بعد أن انتهى منه على الطاولة ونظر إليها:

. وهل أنتِ مثل عامة الناس تؤمنين بوجود لعنة وسحر، تلك هي معتقدات من مروا على التعليم مرور الكرام، وليس من تعمقوا في العلم ليحصلوا على لقب الدكتوراه

حينها شعرت بالإهانة والسخرية في كلامه، فقررت أن ترد له الصاع اثنين:

. القضية يا حضرة الضابط ليست إيماني من عدمه بوجود لعنة، إنما حقائق علمية وإحصائيات وحوادث ليس لها تفسير

قاطعها حسام:

. هذا يعنى أنك تؤمنين بلعنة الفراعنة؟

قالت سارة في تحدي:

. نعم، بحكم دراستي الكثيرة في هذا المجال بعكس الكثيرين، فقد كان في مصر القديمة أكثر من ست مدارس للسحر، مارس فيها الكهنة كل ما تتخيله من أنواع السحر وعلموه إلى تلاميذهم، كما يمكنني أن أقص عليك الكثير من الحوادث التي لم نجد لها أي تفسير علمي وبسببها ظهر مصطلح لعنة الفراعنة، لكن بالطبع سيكون من العسير عليك أن تقتنع لأنك غير دارس لعلم الآثار، وبالطبع لا يمكن أن تفهم أسبابي في اعتقادي باللعنة طالما لا تقرأ ولو القليل عن هذا العلم، وهو ما يبدو واضحا في كلامك.

كان حسام يبدو كمن ضرب على وجهه بالقلم، وأدرك أنه لن يفوز بالمعارك الكلامية بينهما، بينما اتسعت عينا إبراهيم فتلك هي أول مرة يرى أحدا يمتلك الجرأة التي تجعله يرد على حسام، فالتزم الصمت وهو يعلم أن حسام لن يصمت، فأنقذ العمدة الموقف عندما نهض من جلسته موجها حديثه إليهم:

. سأذهب لإيصال عائلتي إلى الأقصر، وعندما أعود سيكون معي الشيخ فتوح الزيدي، لقد كلمته واتفقت معه على القدوم، صدقوني هو رجل قادر أن يزيح ذلك السحر الذي أصاب القرية، أو على الأقل يخبرنا بالسبب.

خمن حسام من نظرة الرعب في عينيه أنه سيبقى معهم في الأقصر، ويأتي إلى القرية ربما في الصباح، لن يسمح له خوفه أن يبيت ليلته هنا بعدما حدث، لكنه كان يريد منه شيئا آخر:

. يا عمدة، أنا أعلم أن أهل القرية محدودي الدخل، لكن بالطبع هناك بعض الأشخاص من الأغنياء والميسورين ماديا.

هز رمزي رأسه في بلاهة:

. لا أفهمك؟

أخرج من جيبه ورقة وقلم وناولهم للعمدة وطلب منه مباشرة دون مقدمات:

. أريد أسماء كبار القرية من الأغنياء، كان من الممكن أن أحصل عليهم من تحريات قسم الشرطة هنا أو في الأقصر، لكنى أرى أنه ليس من الاحترام أن التف من ورائك لأعرف أسماءهم

رغم أن كلمات حسام حملت احترام في الحقيقة لا يكنه لرمزي لكن فقط ليكتسبه في صفه، ويعطيه ما يريد، إلا أنه نظر إليه في قلق، فقد كان منهم من ساعده على اعتلاء كرسي العمودية بعد أبيه، فابتلع لعابه في توتر واضح:

. هل من الممكن أن أعرف السبب؟

نظر إليه حسام بابتسامة خفيفة حتى لا يثير شكوكه، وهز يده التي تحمل القلم، وكأنما يذكره بسلطته وباللواء منصور لترهيبه:

. تحريات جديدة

أمسك بالقلم وبدأ بكتابة ثلاثة من الأسماء سلمها إلى حسام:

. هؤلاء هم كبار عائلات الجبراوي والفرارين، والباقين قد تركوا القرية ليعيشوا في الأقصر أو قنا، وقليلا ما يزورون القرية، لكن أؤكد لك أن تلك الأسماء هم لأشخاص أمناء ومحترمين، وليس لها مصلحة فيما يحدث، بالعكس فقد تضررت تجارتهم كثيرا بسبب تلك الحوادث

كان رمزي يحاول أن يمحي ذنب تسليم تلك الأسماء إلى حسام، خاصة اسم الحاج سعيد صديقه وكبير عائلة الفرارين، أما الحاج فوزي والحاج رحيم الذي سطر أسماءهم في تلك الورقة، لا يعنيه أمرهم كثيرا، فهم كبار عائلة الجبرواي وطالما زاحموه في منصب العمودية.

هز حسام رأسه، وهو يقرأ الورقة الصغيرة:

. شكرا يا حضرة العمدة

فاستأذن رمزي سريعا:

. كل طاقم الخفر سيكونون موجودين هنا، إذا احتجتم أي شيء، السلام عليكم.

وغادر المنزل هو وعرفان، في طريقهم إلى الأقصر، ولم يبق في المكان إلا ثلاثتهم حسام وإبراهيم وسارة.

وضع حسام الورقة في جيب جلبابه، ونظر إلى إبراهيم بلا مبالاة وكأن شيئا لم يحدث مما حدث اليوم، فباغته إبراهيم بالسؤال:

. لماذا لم تطلب مني تلك الأسماء يا حسام باشا؟

. أنا أملك تلك الأسماء يا إبراهيم قبل مغادرتي القاهرة، لكني أردت اختبار نية العمدة، ومعرفة طريقة تفكيره، وهو لم يخبئ أي شيء حتى الآن، المهم ماذا فعلت في التحريات التي طلبتها منك؟

فاعتدل إبراهيم في جلسته، وفي عقله ألف سؤال لحسام لا يستطيع أن يسألها له:

. نتيجة التحريات تقول، إن المدعو علاء مشهور بحسن السمعة والكل يشهد له، الذي حدث معه مشابها تماما للذي حدث مع الأخوين رجب وجمال، كان في أرضه يحرق بقايا محصول القصب، وعندما عاد إلى المنزل طلب من زوجته تحضير الغداء، وعندها بدأ يهلوس ويصرخ ثم خلع كل ملابسه وجرى في شوارع القرية وعندما أدركه أهلها وجدوه يأكل من لحم إحدى الأبقار نيئا.

نظرت سارة بتوتر لإبراهيم، بينما أكمل حسام في غير اكتراث لنظراتها:

. ماذا عن الأجانب؟

. سألت الخفر وعلمت أن من رأوهم كانوا شابين ممن يسهرون ليلا على "غرزة" في مدخل القرية، دخلوا بسيارة دفع رباعي في حدود الثالثة صباحا، والشابان قالا أن جنسياتهم ربما تكون صينية، كما تعلم أنهم لا يستطيعون التفريق بين الياباني والكوري والصيني، أما عن البرنامج التليفزيوني الذي أتى لبيت علاء، فقد قال لي أحد أفراد الطاقم أن مكالمة أتت لمعد البرنامج وهذا كل ما استطعت معرفته دون الكشف عن هويتي.

صمت حسام قليلا، ليرتب أفكاره:

. تمام يا إبراهيم، اسمعني جيدا، أريدك أن تسأل على تلك البنت التي كانت مع مرزوق، الولد المختفي الذي حكي عنه العمدة، اعرف من هي وعنوانها واستجوبها، كما احتاج إلى عنوان مرزوق في القرية

. أمرك يا حسام باشا

وضعت سارة يديها الاثنين على المنضدة بعصبية معترضة لتوقفهم عن الكلام:

. حسام بيه، أريد أن أفهم عن ماذا تتكلمون

نظر حسام إلى إبراهيم وأشار بيده ليأمره بالذهاب

كان ذلك العطر منتشرا في المكان كله ويغزو أنفه بقوة، فعاودته ذكرى ألم صدره الذي شعر به أول مرة رآها فيها في معبد الأقصر، لكن تلك المرة جاء مختلطا بصداع استمر عدة دقائق ثم اختفى.

حاول إزاحة تلك الذكرى، حتى لا يظهر على ملامحه ما لا يريد!

فتراجع بظهره ونظر إلى بعض النخيل في طرف المنزل الذي حركه الهواء بانسيابية.

بينما ارتسمت على وجه سارة نظرة جادة وغاضبة، فتكلم حسام بهدوء:

. ماذا تريدين أن تعرفين؟

قطعت كلماته أفكارها:

. من هو مرزوق ومن تلك الفتاة التي تتكلمون عنها؟

. لم أخبرك بقصة مرزوق لأني لم أكن اعتقد أن لها علاقة بالموضوع.

شرح لها ما قاله العمدة بالتفصيل دون اقتصاص، استمعت له بانتباه شديد، وانتظرت حتى انتهى ثم عقبت قائلة:

. وما علاقة مرزوق بما يحدث هنا؟

أخرج سيجارته قلبها في يده قبل أن يشعلها، وهو ينظر إليها:

. هناك رابط بالتأكيد يا دكتورة، لقد حدث كلاهما في نفس التوقيت، في رأي هذا رابط قوى

. هل من الممكن أن تكون صدفة؟

في تلك اللحظة تصنعت الغباء ليخرج حسام ما بداخله من معلومات، مارست عليه ما أتقن ممارسته في غرف الاستجواب، أيقنت أنها لن تحصل عليها سوى بالخديعة كما تفعل معظم النساء.

. في عملي لا وجود للصدف، وأن وجدت علينا التحقق أنها حقا صدفة

نظرت له وهى ترسم على وجهها ابتسامة ثقة:

. بالطبع أنت قد عرفت ذلك الرابط الذي تتكلم عنه.

ظنها حسام تسخر منه لكنه تذكر ما حدث معه في السيارة فتحول إليها وهو ينظر بجدية، فأكملت هي كلامها:

. كان ذلك واضحا عليك عندما كان إبراهيم يخبرك بنتيجة التحريات.

أراد حسام أن يخرج المزيد من الكلمات منها، فسألها:

. ماذا تقصدين؟

. أثناء كلام إبراهيم، عينك لمعت وضاقت، وهذا يحدث عندما يستنتج الإنسان شيئا، كما أن تنفسك أصبح طويلا وأقل حدة، ويداك الاثنان ارتختا على الطاولة، وهذا يعنى أنك واثق أن ما أستنتجته صحيحا إلى حد كبير، ولكن بالطبع أنت تعلم لغة الجسد وما تعنيه، لأنك درستها في الكلية وتمارسها يوميا في عملك.

نظر إليها حسام بذهول، لقد تقابل بقارئ انفعالات لا يخطئ، لكنها تجاهلت ردة فعله وأكملت:

. لقد أردت فقط أن أخبرك بكل هذا حتى لا تظن أني إنسانة ساذجة لا أجيد إلا قراءة الكتب، لقد تعلمت على يد أفضل رجل يقرأ لغة الأجساد، وأظن أنك تأكدت الآن من كلامي، كل ما أرجوه أن تمنحني بعض الثقة، وألا تعتبرني ثقيلة عليك في مشاركتك عملك، في النهاية ستنتهي القضية وكل منا يعود لعالمه، فلا أريد أن تتذكر عنى أني كنت إنسانة ثقيلة الظل، ليترك كل منا انطباعا جيدا للآخر

تنهد حسام وهو ينظر إليها نظرات ثاقبة يحاول أن يخترق ذلك الوجه الخالي من الملامح، هز رأسه بالموافقة دون أي تعليق منه، لم

يحصل حتى الآن على أي ملامح للشخصية التي يتعامل معها وهذا لم يحدث معه من قبل، في كل من قابلهم في قضاياه السابقة، لكنه علم أنها على حق.

فكل منا لديه لغة خاصة كالشفرات داخل عقله تعود أن يتحدث بها إلى نفسه تلك اللغة تظهر على هيئة انفعالات على الوجه أو حركات صغيرة نقوم بها متخيلين أنها طبيعية، ليس من السهل للآخرين قراءتها، لكن إذا انتبهت جيدا، وبالطبع كان لديك تدريب في قراءة لغة الجسد، فستكون كقارئ الأفكار بالنسبة للعامة، لقد علمها جدها الكثير من لغة الجسد، فهو الذي يعود له الفضل في ذلك.

الفصل الخامس عشر:

ارتدى رمزي عباءته، وهدب من شاربه أمام المرآة، ونظر من شرفة غرفته مناديا رئيس خفره:

. عرفاان.. جهز السيارة سأذهب في مشوار

فانتفض من مكانه، وركض في اتجاه السيارة وأدار محركها دقائق وركب إلى جانبه رمزي:

. خذني إلى المقهى السياحي في وسط المدينة

فأومأ عرفان برأسه:

. حاضر يا عمدة.

كان المقهى مزدحما بزبائن غالبيتهم من الأجانب الذين يدمنون تدخين الأرجيلة، فتصاعدت الأدخنة في المقهى صانعة شبورة أخفت كثيرا من ملامح الوجوه التي تجلس على الطاولات، ترجل من سيارته ودخل المقهى يفتش بعينيه على طاولة من المفترض أن يكون كارم أخيه جالسا عليها، وجده في ركن يصنع بسجائره سحابة دخان خاصة به، اتجه إليه أزاح أحد المقاعد وجلس:

. كيف حالك يا كارم

. أنا بخير يا أخي

. ماذا فعلت في محصول القصب؟

. اتفقت مع التاجر، سيجلب رجالة لكسر القصب وسيارات لنقل المحصول.

رمزي وهو يشير لأحد الجارسونات:

. جيد، لقد حلت مشكلة جني المحصول

تقدم الجارسون إلى الطاولة حاملا دفترا صغيرا وقلما في يده:

. أي خدمة يا فندم

. كوب من القهوة سكر زيادة.

فأومأ الجارسون برأسه وهو يكتب طلبات زبونه ثم ابتعد، بينما زفر كارم دخان سيجارته في عصبية:

. ماذا فعلت مع الضابط ومن معه؟

. لا شيء.. لم يتوصلوا لشيء بعد.. لكن الأمور يبدو أنها ستخرج عن سيطرتهم أيضا

فمال كارم بعصبية إلى الأمام وهو ينظر لأخيه:

. نحن أولى بأمورنا وأسرارنا

حك رمزي ذقنه، وهو ينظر لأخيه بتركيز:

. القرية خرجت عن سيطرتنا يا كارم، وتدخل الجرائد والتليفزيون عقد القضية كثيرا، كان لابد أن نتنازل ونتعاون مع الشرطة، قبل أن يكسبهم إلى صفة شخص آخر

. ماذا تقصد بشخص آخر؟

. عائلة الجبراوي بالطبع، هل نسيت أن ابن الحاج رحيم ضابط شرطة.. كان ولابد أن أكسب الشرطة في صفي قبل أن تفعل عائلة الجبراوي.

. لك الحق، لقد وزعوا أفرادهم على بيوت القرية ينشرون كلام لا يصح قوله، ليقلبوا أهلها ضدك، هذا بخلاف المشاكل التي يفتعلونها في شوارع وسوق القرية، قسما بالله لولا تلك الظروف السوداء لكان بيننا وبينهم دماء، أنا متأكد أن لهم يدا فيما يحدث للقرية

. ولهذا السبب أدخلت الشرطة لتحقق في الموضوع، حتى لا يتهمنا أحد بالتواطؤ، أو حتى أن لنا يدا فيما يحدث، وإذا كانوا هم وراء تلك الحوادث ستكون الشرطة طرفا محايدا لا يشكك أهل القرية في حكمه، وحتى لا يقولون إننا ننحاز ضدهم

أتى الجارسون ووضع القهوة أمامه، فأمسك بها العمدة، وارتشف منها، وتابع حديثة:

. كما أن الشرطة لن تخوننا، ولن تفضل طرفا على آخر خاصة اللواء منصور

. وما الذي تنويه الآن؟

. الحاج سعيد سيأتي بعد قليل، لنتكلم في موضوع الشيخ فتوح.

. ولماذا أخبرت كبير عائلة الفرارين؟

. هو لا يعلم شيئا عن الضابط ومن معه، لكنه أخبرني واقترح أن نأتي بالشيخ فتوح ربما يحل تلك الغمة، فأنت تعلم أنه يكره عائلة الجبراوي مثلنا، ويغيظه ما يفعلونه في القرية، كما أن علاقته جيدة جدا بالشيخ فتوح وسيستطيع إقناعه على المجيء.

هز كارم رأسه في صمت، وهو يدخن سيجارته الثالثة في وجوم، موافقا كلام أخيه، رغم كرهه لتدخلات الشرطة، وشكة الدائم في الحاج سعيد.. لكنه اقتنع بكلام أخيه بتقديم بعض التنازلات حتى تنقشع تلك الغمة، وإلا سيخسرون كل شيء.

الفصل السادس عشر

لم تنم سارة تلك الليلة حتى شروق الشمس، تركت أنوار غرفتها مضاءة، ونامت على سريرها تتأمل سقف الغرفة، تجمع تلك الشقوق الصغيرة لتكون أشكالا في مخيلتها، تتسلى بها عن النوم.

لأول مرة في حياتها تشعر بالرعب!

كان هناك عرض بانورامي داخل عقلها للأخوين آكلى اللحوم، يتكرر مرة تلو الأخرى.

تتذكر منظر الدماء.

ومعدتها تتقلص كلما تذكرت رجب وهو يمضغ لحم أخيه.

لا تعلم هل تخاف مما حدث في غرفتها في الفندق، أم تخاف مما رأته بأم عينها في القرية.

إلا أن الحادثة الأولى كانت أكثر رعبا لها، وأطارت من عينيها النوم.

فقد شعرت تلك الليلة بشيء غريب في غرفتها، والمؤكد أنه لم يكن كابوسا فقط.

فكرت أن تقول لجدها ما حدث دون أن تخبره بأمر القضية، إلا أنها تراجعت حتى لا يقلق عليها.

فاعتدلت في جلستها وفتحت حاسوبها المحمول، تبحث على أي شيء قد يخبرها بما يحدث لها.. تصفحت العديد من الصفحات العلمية ولم تجد مبتغاها.

لم تحمل معها الكتب التي قد تساعدها في ذلك البحث، تركتها في غرفتها بالمنزل.

جلست بصمت تحاول إيجاد سبلا أخرى للبحث، فلفت انتباهها كتاب ملقى على طرف فراشها، فتذكرت على الفور ذلك الكتاب الذي كان يقرأ منة كبير الكهنة في الحلم.

فأغمضت عينيها وحاولت أن تتذكر ذلك الكتاب أو حتى ما كان يتلوه الكاهن على سمعها.

بدأت تفاصيله تتدفق سريعا، كان ذا غلاف ذهبي ضخم بداخله لفافة أسطوانية، يحيط بإطار الكتاب أربعة قرود من نوع البابون يرتفع ذيلها إلى أعلى وتمتد أيديها لتمسك ببعضها مكونة إطارا أصغر للكتاب، وفي الوسط ماسة ضخمة حمراء اللون تتلألأ وتنبض بنبضات تشبه نبضات القلب يخرج منها أفرع نباتية خضراء اللون تتحرك بانسيابية وتنتشر في كل الغلاف، وأعلى الماسة رجل يقف له رأس أبو قردان يمسك بيده مفتاح الحياة عنخ.

بعدها تذكرت تفصيلة، لم تكن تعرف إذا كانت رأتها في الحلم أو هي رؤيا، فقد رأت الكاهن ينزع مفتاح الحياة من الكتاب فتوقف الحجر الماسي عن النبض، وسكنت حركة الأفرع النباتية وتغير لونها من الأخضر إلى اللون الذهبي، ثم علق ذلك المفتاح على جيدها، أما الباقي فهي تتذكره جيدا، فقد انصهرت القلادة بها!!

فتحت عينيها وشهقت شهقة عالية، بالطبع أدركت ما هو الكتاب.

إنه كتاب تحوت..

ذلك الرجل الذي له رأس أبي قردان هو الإله تحوت..

وقرود البابون هي رمز له.

العظيم تحوت إله الحكمة والعلم والسحر.

الكتاب الذي بحث عنة الكثيرون على أمل امتلاك تلك القوة الغير محدودة.

ذلك المفتاح الذهبي الصغير الذي انصهر فيها بطريقة ما.

أصبحت هي التي تملك المفتاح!

في نفس الوقت كان حسام يتصفح الهاتف باهتمام، وهو يحرق سيجارة تلو الأخرى.

فارقه النوم أيضا تلك الليلة

فقد أثار قلقه مما أخبرته به سارة

في مهنته تعود أن يحترس كثيرا من ردود فعله حتى يحافظ على سرية المعلومة.

وغموض شخصيته الذي يضفى عليه جدية عهدها منه كل من تعامل معه.

بذلك استطاع اكتساب الاحترام.

والآن هو ما كان يشعر به من يقف أمامه.

حاول اعتصار عقله ليتذكر حركات جسده عندما كان يخبره إبراهيم بتطورات القضية، شيء بداخله كان يخبره أنها لم تعرف ما كان يفكر فيه من لغة جسده فقط!

رغم أن عقله وكل ما تعلمه عن لغة الجسد في كلية الشرطة يخبره أنها على حق.

غادر غرفته، حاملا علبة سجائره

ليكمل جرعة التدخين المختلط بالتفكير.

يحتاج متنفسا يخرج فيه ما بداخل خلجات صدره.

كانت الثالثة فجرا عندما مر أمام غرفة سارة ووجد أنوارها مضاءة من أسفل باب الغرفة، خطر بباله أنها تقرأ كتابا ما.

نزل الدرج الخشبي مجتازا الصالة الكبرى إلى الشرفة الرئيسية المطلة على الحقول الخضراء، كان الطقس باردا للغاية، حتى تشابه بخار الماء الذي كان يخرج من فمه بدخان السجائر، غلبه النوم سريعا على تلك الأريكة من كثرة الإجهاد والتعب الذي نال منه اليوم.

ولم يستيقظ إلا عندما سقطت أشعة الشمس على وجهه.

كانت السادسة صباحا فهو لم ينم سوى ساعات، فصعد إلى غرفته الأكثر دفئا، لف جسده بأحد الأغطية الصوفية لمزيد من الدفء، ونام تلك المرة نوما ثقيلا.

لكن الأحلام هي من نالت منه تلك المرة.

رأى نفسه في معبد فرعوني كما لو كان حديث البناء، بألوانه الزاهية وتماثيله الكاملة.

كل شيء بدا ضبابيا للوهلة الأولى.

حركة تدور حوله، ووقع أقدام تجري يصل إلى أذنه صرخات تتعالى من بعيد.

لمح فتاة تجري بين الأعمدة الضخمة، ترتدي فستانا أبيض، ينسدل شعرها على كتفيها على هيئة ضفائر رفيعة، حاول أن يجري ويلحق بها.

فانتبهت إليه الفتاة واستدارت له

إنها سارة!

لكنها ترتدي زيا تنكريا أو كما ظنه هو.

توقفت ونظرت له نظرة اعتقد أنها طالت لدقيقة كاملة!

فجأة...

وكأن أحدهم فصل مقبس الصوت

أو أنه فقد حاسة السمع وأصيب بالصمم!!

ثم شعر بشيء قوي اصطدم به، فأطاح به إلى سقف المعبد، سقط على الأرض، سال الدم من رأسه وصارت رؤيته غير واضحة.

لكنه لم يكن يرى ظلها واقفا حتى مع اضطراب رؤيته، فأيقن أنها اختفت في إحدى غرف المعبد.

دوار شديد عصف برأسه وصداع يكاد يقتلع عينيه، انتصب مستندا على حائط المعبد، مسح بيديه الدم السائل من جبهته.

تمشى مترنحا في اتجاه الغرفة الوحيدة التي أمامه، التى من الممكن أن تكون اختفت بداخلها سارة، تستند يداه على الأعمدة فتترك طبعة من دمائه.

دلف إلى الغرفة وهو يترنح لكنه استطاع رؤيتها.

عيناها تنظران إليه، تترجاه.

تسيل من عينيها دمعة، أخذت بعضا من الكحل الذي زين عينيها لتتلون باللون الأسود، وترسم خطا رأسيا على خدها.

حاول أن يتحرك في اتجاهها لكنه لم يستطع الحركة.

كان الصداع وصل إلى مرحلة قاتلة، أمسك رأسه بيديه وسقط في الأرض صارخا بكل قوته.

وبينما كان يصرخ، اهتزت يداه وانتفض جسده بأكمله، شعر أنها النهاية، وأن تلك هي لحظات موته.

في نفس الوقت ظهر ثعبان ضخم مر من مدخل الغرفة.

أدار الثعبان رأسه أولا إليه وارتسمت ضحكة على فمه.

لم يكن ثعبانا بحجم الثعبان العادي.

كان ضخما.

عيناه أقرب إلى العينين البشريتين.

تجاهل الثعبان وجود حسام كأنه لا شيء، كان يعرف طريقه إلى أين.

وقف أمام سارة التي ارتسمت على وجهها نظرة تحدي، في الوقت الذي صرخ فيه حسام بصوت أعلى مرة أخرى، فجذب انتباهها للحظة.

تلك اللحظة كانت كفيلة لأن يهاجمها الثعبان ويضخ سمه في جسدها.

تأوه حسام ورفع رأسه لينظر إلى سارة، التي كانت سقطت على الأرض في وسط بحيرة من الدماء.

جرى إليها وهو يصرخ ويخضها دون جدوى.

هناك ثقبان ضخمان في رقبتها يسيل منهما الدم.

وبقعة الدماء تتسع شيئا فشيئا.

أغمضت عينيها وأمالت رأسها على كتفه.

رأى قطرات من الذهب الصافي كأنما كانت تسقط من السماء على جسدها.

ثم شعر بانفجار داخل رأسه من شدة الألم.

استيقظ بعدها مذعورا، ليجد بعض الدموع على خده.

ولعابه يسيل على الوسادة.

ألم في عضلات وجهه بسبب انقباضهم الشديد من الانفعال.

وتنفسه مضطرب.

وكأن ما حدث كان حقيقيا.

ما شعر به في الحلم أقرب للواقع من الأحلام التي اعتاد عليها.

كان الحلم مفهوما ومرتبا وواضحا بطريقة غريبة!

شعر بعنف نبضات قلبه.

تحرك من السرير إلى ذلك الحوض الصغير في بيت الراحة، أدار رأس الصنبور الصدئ لينهمر الماء شديد البرودة على رأسه، كان يأمل أن يكون له تأثير النبضات الكهربية فيفيق عقله سريعا.

أمسك بمنشفة صغيرة من حقيبته وجلس على طرف الفراش يجفف رأسه ووجهه، لكنه كان مختلفا تماما عن سارة في التعامل مع تلك الأحلام، فلم يبذل أدنى مجهود ليقنع عقله أن ما رآه كان نتاج الأحداث الجارية معهم في القرية، وكثرة التفكير والتدخين قبل النوم!!

لابد أن النيكوتين قد عبث بعقله!

بحث عن هاتفه ليعرف الوقت.. وجدها الساعة التاسعة، ارتدى ملابسه مسرعا.

ونزل إلى صالة المنزل الرئيسية فوجد إبراهيم يعد الشاي في فناء المنزل، اتجه إلى الفناء، وألقى السلام عليه، أراح جسده على الكرسي.

حاول أن يدخل إلى رئتيه أكبر كمية من الهواء البارد، لتسكن اضطرابه الداخلي.

دخلت سارة وراءه تحمل بعض البسكويت في يدها للإفطار، وألقت السلام على حسام.

لكنه تأخر في الرد، كان يشعر شعورا غريبا.

عندما ترى شخصا يموت في حلمك وتشعر به يموت فعليا وتحزن وتكتئب، إنها ثوان ولكنها تمر كالساعات.

ثم تستيقظ لتراه أمامك، كأنة مات في الحقيقة وعاد من موته، تشعر حينها شعورا لا تستطيع التحكم فيه، الشفقة والمودة بدون سبب.

ابتلع ريقه، وأخرج علبة السجائر من جيبه ليشعل واحدة.

جلست سارة بهدوء أمام حسام، وقد شعرت أن هناك شيئا تغير في داخله، لكنها لم تستطع قراءته، فقد كان يهرب بتفكيره بعيدا، حتى يزيل التأثير النفسي المزعج لذلك الحلم!!

خمنت لحظة ربما يكون ما حدث ليلة أمس، من الممكن أن يكون كلامها ضايقه، لذلك هو يحاول تجنبها.

لكن شعورها كان يخبرها أن هناك شيئا أكبر من ذلك.

شعرت أن هيأته تشبه هيأتها لما زارته تلك الأحلام المزعجة.

لكنه شعر بها داخله، فافتعل محاولة بائسة للهروب من نظراتها.

نهض من مكانه، وهو ينادى إبراهيم:

. إبراهيم.. تعالى هنا وأترك لي الشاي سأعده أنا

نظر إبراهيم إليه لحظة، ليفهمه، ثم ترك الأكواب من يديه ووضعها على المنضدة وجلس إلى جانب سارة، وهو مرهق الجسد فقد عاد من مأموريته منذ نصف ساعة، حاملا الكثير من التحريات في جعبته لحسام.

أتى حسام حاملا الشاي، والسيجار في فمه:

. لقد أتممت كل التحريات التي طلبتها مني، ولا استغرب أنك كنت محقا، فقد عرفت كل شيء عن ذلك المدعو مرزوق والفتاة التي كانت معه

حسام وهو يشعل السيجارة الثانية:

. أنا أسمعك

. أمين الشرطة الذي رافق ضابط التحقيق، أخبرني أن تلك الفتاة أمسكت قبل ذلك في قضية آداب، ومحتجزة إلى الآن في قسم الشرطة، وبالطبع ذهبت وتكلمت معها

. وماذا قالت لك؟

. اعترفت أنها أخذت مبلغا من المال لتتقرب من مرزوق، والرجل الذي كلفها بذلك وأعطاها المال هو زبون اعتاد أن يأتي إليها الأقصر

. اسمه؟

. اسمه النمر، لكن بالطبع هذا اسم مستعار

لكن سارة تدخلت في الحوار بينهما، قائلة:

. ماذا عن أوصافه وشكله، يمكنها أن تتعرف عليه أو تعطينا أوصافه

فتنهد حسام في يأس:

. حتى إذا استطاعت الشهادة ضده، لن تفيد قضيتي، فأنا أحب أن أغلق القضية دون أي شكوك، سيكون من السهل التشكيك في شهادتها نظرا لسوابقها ومهنتها، هذا بالطبع إذا افترضنا أن من ستتعرف عليه هو وراء كل هذا، غالبا سيكون النمر رجل من رجال الشخص الذي يفعل كل هذا، فهو ليس بالغباء الذي سيعرض نفسه للكشف

. ولكننا إذا أمسكنا النمر يمكنه أن يشهد ضد هذا الشخص أو يخبرنا على الأقل من وراء كل هذا

. أنت لا تعرفين رجال الصعيد، لا يسلمون بعضهم البعض إلى الشرطة أبدا مهما حدث، يومها سيكون لدينا النمر والمتهم الرئيسي سيفلت بفعلته

اقتنعت سارة بكلامه، فهو على الأقل يعرف في القانون أكثر كثيرا مما كانت تظن، فقد بدا لها كلامه منطقيا، بينما نظر حسام إلى إبراهيم وهو يطفئ سيجارته:

. هل أتيت لي بعنوان مرزوق؟

. بالطبع

أخرج ورقة صغيرة من جيبه وسلمها لحسام

• أشكرك يا إبراهيم، لقد أرهقتك بتلك التحريات.

وأخرج حسام من جيبه الورقة التي أعطاها له العمدة وناولها له:

. أريد منك شيئا أخير، تلك الورقة التي أعطاني إياها العمدة، أريد كل شيء عن تلك الأسماء التي بها.

. أوامرك حسام بيه

. يمكنك الآن أن تذهب للنوم، وعندما تستيقظ انتهي من تلك التحريات

فهز إبراهيم رأسه ممتنا:

. أشكرك يا حسام بيه

نهض من كرسيه تاركا، حسام وسارة وحدهما.

بدا على حسام الضيق وهو يمسك تلك الورقة الصغيرة التي احتوت على عنوان مرزوق، فما كان منها إلا سؤاله:

. هيئتك لا تبدو مطمئنة مثل الأمس، هل هناك شيء ما ضايقك في كلام إبراهيم؟

فابتسم حسام بطرف شفتيه، ابتسامة صغيرة ونظر إليها:

. لماذا لا تقرأيني، كما فعلت البارحة لتعرفي ما يضايقني

تضايقت واقتضب جبينها، لكنه لم يكن أبدا ليهزمها في الحديث:

. لم أفعل ذلك لأنك تضايقت، واحترمت خصوصيتك، ففضلت أن تخبرني أنت بما يدور بداخل عقلك

رجع حسام بظهره ليريحه على الكرسي، وهو ينظر إلى الورقة:

. ما حدث لمرزوق يثير الكثير من الأسئلة، إذا كان هناك من دفع للفتاة حتى تلف شباكها حوله، فلماذا لم يأمرها أن تستخرج منه المعلومات، فقد شككت أن يكون لدى مرزوق شيئا أثريا، لكن على

العكس تماما، كل ما أراده ذلك الشخص هو افتعال فضيحة في القرية لمرزوق، وهذا غريب

. ربما لم تخبر الفتاة كل شيء لإبراهيم

فهز حسام رأسه نفيا:

. هذا لا يمكن أن يحدث مع إبراهيم، أنت لا تعرفين أسلوبه في استخلاص المعلومات، لكن أنا لدي نظرية أخرى

. وما هي؟

•أيا كان ذلك الشخص النمر، فقد كان غرضه أن يجعل منزل مرزوق فارغا، بالطبع بعد الفضيحة هو لن يبقى في القرية وزوجته ستترك المنزل، لم يكن غرضه أبدا معرفة أي معلومات منه، لأنه يعرفها بالفعل

رفعت سارة حاجبيها عندما هم حسام بالوقوف، فنظرت إلى أعلى لتحدثه:

. إلى أين؟

. بالطبع سأذهب إلى بيت مرزوق، له معي جولة كبيرة من البحث

وقفت سارة من مكانها، وعدلت من ملابسها:

. جيد جدا، لأنك لن تجد أي شخص أفضل من أثرى قضى حياته في البحث والتنقيب ليبحث معك

هز رأسه موافقا، ثم وضع يده تحت جلبابه ليطمئن من وجود سلاحه.

قاربت الساعة على العاشرة صباحا، عندما استعد حسام وسارة للخروج من المنزل عندما رن هاتفه، رفع حسام الهاتف ليجده العمدة

رمزي، رد حسام وهو يتوقع أن سبب الاتصال هو ذلك الدجال الذي يريد العمدة جلبه إلى القرية، ولم يكن حسام مخطئا، فهو نادرا ما يخطئ، لكن السخرية التي ارتسمت على وجهه، جعلت سارة تريد سؤاله لكنها كانت بالطبع محرجة أن تبدو كمن تتدخل فيما لا يعنيه، لكن علامات السؤال كانت ظاهرة على وجهها كالشمس في وقت الظهيرة، فنظر إليها حسام وتحول وجهه إلى الابتسام:

. العمدة سيكون هنا الساعة الخامسة عصرا، سيجلب معه دجالا يسمى فتوح، ربما يستطيع حل مشاكل القرية وإبعاد الجن

فقالت له بامتنان:

. شكرا لأنك أخبرتني

. العفو، لكني لم يكن لدي اختيار آخر، فقد كان السؤال على وجهك واضحا

ثم وضع هاتفه في جيب جلبابه مكملا حديثه لها:

. فأنا أيضا أجيد قراءة الأشخاص

إلا أنه لم يكن صادقا تماما، فمنذ أن عرفها وهى تبدو غامضة، ولو لم يكن وجهها هو الذي فضحها بشكل لافت لما استطاع معرفة ما تفكر به.

لف شالا صوفيا حول وجهه حتى يخفي ملامحه، بينما أحاطت هي جسدها بملاءة سوداء، تلك التي اعتاد أن يلبسها نساء القرى.

وانطلقا الاثنان إلى المنزل.

الفصل: السابع عشر

في الطريق انتاب حسام الفضول، فقرر سؤالها:

. هل يمكنني أن أسألك سؤالا؟

. بالطبع تفضل؟

. أين تعلمت لغة قراءة الجسد بهذا الشكل المتقن.

فابتسمت تحت العباءة التي غطت بها وجهها:

. إنه جدي دكتور توفيق، فهو دكتور للمصريات في لندن، اعتاد أن يعطيني دروسا في قراءة الناس، كان يقول لي دائما أن لغة الجسد أصدق من اللسان، فهي التي تفضح الإنسان بكل ما يخفيه

. وما دورها في وظيفتك؟

. في الحقيقة إذا سألت أي أثري سيقول لك إنها ليس لها أي دور على الإطلاق، إلا لو اعتبرت قراءة سائق التاكسي، وعم سمير حارس المعبد بالشيء الهام.. لكن لقد كان جدي مصمما أن أتعلمها، كان يخبرني دائما أنها ستفيدني في فهم حركات الأجساد التي رسمها الأجداد على المعابد، إن تقرأ لغة الجسد لإخناتون بينما يقدم القرابين للآلهة مثلا، سيعطيك مدخلا جديدا كليا في فهم ما كان يدور بعقله أو على الأقل عقل الفنان الذي تخيله بذلك الوضع الجسدي ورسمه به ، واستمر في تدريبي وأخبرني ألا أتوقف عن التدريب، لكنى بالطبع توقفت، لكن شيء ما جعلها تعود إلي أقوى مما كانت

بالطبع كانت تقصد تلك الأشياء التي تشعر بها وتراها بعد أن رأت ذلك الحلم، لكن حسام نظر إليها مستغربا وقع الحديث وآثر ألا يسألها.

كانا قد وصلا إلى بيت مرزوق الذي هجر منذ أن تركته زوجته بعد الفضيحة، يطل من جهة المدخل على شارع صغير مدكوك بالتراب غير مرصوف كعادة القرى المصرية، والثلاث جوانب الأخرى تحيط به الأراضي الزراعية، ملحق به من الخلف مساحة مسقوفة بجريد النخيل خصصت لتربية الحيوانات وبعض الدجاج. تجول حسام بنظره في الشارع الفارغ، تأكد مرة أخرى من وجود سلاحه أسفل الجلباب كان المنزل في أطراف البلدة، مسافة سبع دقائق من منزل العمدة، طوال سيرهم لم يقابلهم سوى رجل كان يحمل أمتعة أسرته على عربة يجرها حمار استعدادا للرحيل، تصرف حسام بشكل طبيعي وألقى عليه السلام كعادة أهل القرى، واستمر في السير حتى توقف أمام منزل من الطوب اللبن من دور واحد.

يقابله منزل من الأسمنت والطوب الأحمر.

التف حسام وراء المنزل، ليتأكد أنه غير مراقب.

ثم كسر بابا خشبيا في الجزء الخلفي من حظيرة المنزل.

وقفت سارة في الشارع لحظات قليلة تتأكد من عدم وجود شخص ينظر إليهما، واختفت خلسة وراء المنزل لتلحق بحسام.

كان المنزل من ثلاثة غرف ومساحة وسطى مكشوفة، وسلم ذي درجات صغيرة من الطوب اللبن دون مسند يصعد لسطح المنزل.

دخل حسام غرفة صغيرة بها سرير والكثير من الملابس المتناثرة في الأرض، وطاولة صغيرة بجانب السرير، لم يكن من العسير على حسام أن المنزل قد سبق اقتحامه وتفتيشه، بسبب طريقة تناثر الأشياء في كل مكان، الطاولة ليست بمكانها، والملابس مبعثرة، فشعر بالضيق فربما يكون قد تأخر عن إيجاد ما كان يبحث عنه فهناك من سبقه، إلا أنه توقف عن التفكير لينجز مهمته سريعا.

بدأ التفتيش بها..

بينما اتجهت سارة إلى غرفة بها سريران صغيران، كان من الواضح أنها غرفة أطفال.

عربة صغيرة من الخشب على الطاولة، وعروسة صغيرة مصنوعة يدويا من بقايا أقمشة مختلفة الألوان.

تفحصت الغرفة بنظرها فقط دون أن تتحرك، كان إحساسها يخبرها أنه لا وجود لشيء هنا، كانت الغرفة الثالثة تجذبها كالمغناطيس!

فلم تفكر كثيرا، إحساسها لم يخطئ حتى الآن، عليها أن تتعامل مع تلك القوى التي أصبحت تمتلكها وتعطي نفسها قليلا من الثقة، فأطفأت أنوار الغرفة وأغلقتها!

خرجت إلى الصالة لتجد حسام يبحث فيها، بعد أن انتهى من تفتيش الغرفة الأولى،

فتوجهت إلى الغرفة الثالثة.

كانت غرفة كرار كما يطلق عليها الفلاحون، وهى غرفة تخزن فيها الأغراض الزائدة والغير مستخدمة، وبعض الحبوب الغذائية.

ألقت نظرة سريعة على محتوياتها.

الكثير من الحبال الملتفة والموضوعة في جانب الغرفة، وفى ركن آخر كومة من جلود البهائم، محراث الأرض وبعض أدوت الزراعة الصدئة.

بدأت في تحريك الأغراض والبحث أسفلها، وبداخلها، حتى دخل عليها حسام وهو يقول:

. لم أجد شيئا، مع أنني كنت على ثقة كبيرة أنى سأجد ضالتي هنا؟

تحركت سارة وأزاحت صندوقا كبيرا، وفتحته:

. لماذا تشك في ذلك الرجل بالتحديد؟ مع أنى لم أجد في تحريات إبراهيم أي شيء يربطه بالآثار، ولم أفهم كلمة إبراهيم لك عندما أخبرك أنك كنت محقا.. ربما شخص ما أراد أن ينتقم منه انتقام شخصي فصنع له تلك الفضيحة

فضحك حسام، ليرد عليها:

. حسنا دعيني أخبرك شيئا، هنا في الصعيد إذا أراد شخص ما أن ينتقم من آخر، فسيكون بالسلاح، لا أن يؤجر له فتاة تصنع له فضيحة، كما أن في عملي لا يوجد شيء يسمى الصدفة، فإبراهيم يعلم أن دفع رجل مالا لفتاة كي ترمي بنفسها على آخر هو في صميم القضية، لقد تعودنا على ذلك في القضايا التي حققنا فيها

جلست سارة على الأرض في مواجهة المكان أسفل الصندوق الكبير تنظر إليه.

كانت أرض الغرفة طينية، وغير مكسوة بأي بلاط كسائر أجزاء المنزل.

نظر حسام إليها متسائلا:

. بماذا تفكرين؟

. تلك البقعة من الأرض قد حفرت حديثا؟

وقف بجانبها، وهو ينظر إلى الأرض محاولا النظر بتركيز إلى تلك المساحة الطينية وفهم ما تقوله:

. أنا لست عالم آثار، لكنى أريد أن أفهم؟

فأشارت بيدها إلى المساحة التي كان الصندوق يغطيها، وبدأت في إزالة طبقة رقيقة من الأتربة بيدها وهي تحدثه:

. حسنا سأريك ما أقصده، تعال أنظر هنا.. هل ترى الفارق بين تلك البقعة التي غطاها الصندوق وباقي أرضية الغرفة؟

. هل تقصدين أن لونها أفتح قليلا؟

. هذا صحيح لكن ذلك ليس سببا مؤكدا، لأن الصندوق منع تراكم الأتربة على سطحها، فصار لونها افتح قليلا من باقي الغرفة كنت سأقول ذلك إذا لم يكن يغطي تلك البقعة شيئا.. لكن المختلف بينهما هنا أن سطح التربة لم يستو بعد، وهو ظاهر في تلك الانخفاضات والارتفاعات الصغيرة، رغم أن وزن الصندوق ثقيلا، وهذا الفارق من الصعب على العين الغير مدربة أن تلاحظه.. كما أن هناك شيئا آخر

فنظر إليها حسام معجبا بسير الحديث، طالما أحب أن يتعلم بعض الأشياء عن مهنة الآثار فيغنيه تعليمه عن الاستعانة بهم في قضاياه، فأنصت إليها باهتمام:

. وما هو؟

. إن تلك البقعة تبدو في مستوى أعلى قليلا من باقي سطح التربة في الغرفة، وهذا غير ممكن، فكان من المفترض أن أرى العكس تماما، كان يجب أن تكون البقعة في مستوى أقل بسبب وزن الصندوق الثقيل القابع فوقها، وهذا سهل على العين الغير مدربة ملاحظته.

نهض حسام وتناول فأسا ضخما كان موضوعا في ركن الغرفة إلى جانب المحراث ليحفر به، فصرخت فيه سارة:

. ماذا ستفعل؟

. ماذا يبدو لك أنني سأفعل، سأقوم بحفرها بالطبع

. بالفأس؟!

فنظر إليها رافعا كلتا يديه في الهواء:

. وهل تقترحين علي أن أفعل ذلك بيدي العاريتين؟!!!

. أنا حقا لا أصدقك، ماذا لو كان هناك تمثالا صغيرا مدفونا، سيتحول إلى قطع صغيرة من أول ضربة فأس

فكرر عليها السؤال:

. حسنا قولي لي كيف سنحفرها، وكما يبدو لي أنك لم تحضري أدواتك معك؟!

فرفعت حاجبها في نصر، وهى تقول:

. شاهد وتعلم منى

ثم خرجت من الغرفة وعادت في يدها ملعقة طعام، نظر حسام إليها في تعجب، بينما بدأت في تحريك أكوام التراب بحذر وبطء شديدين.

مرت عشر دقائق، قبل أن تصدم الملعقة بشيء صلب.

تركت الملعقة جانبا وبدأت في إزاحة التراب بيديها، بينما جلس حسام يشاهد في ترقب.

ظهرت قمطة من القماش الأسود ملفوفة حولها خيط سميك مضفور.

أخرجتها ونفضت بعض التراب العالق بالقماش، ثم فكت الرباط، وأزاحت القمطة عن تمثال لإيزيس من المرمر فائق النقاء!

اتسعت عيناها بشدة وفتحت فمها في ذهول وإعجاب وهى تقول:

. يا إلهى..

فسألها حسام السؤال الذي اعتاد الكل سؤاله لعالم الآثار عندما يعثر على شيء:

. هل تعتقدين أنه أصلي؟!

نظرت إليه وأجابت سريعا:

. بالطبع، فلا يمكن لهذا الجمال أن تزوره يدا، كما أن هناك بعض علامات التفتت على سطح التمثال نتيجة لعوامل الزمن

. جيد جدا، بعد إذنك

التف حسام حولها وأمسك بالفأس ليزيح أكوام التراب ويرجعها إلى مكانها مرة أخرى ثم أزاح الصندوق إلى وضعه السابق.

كان يخشى أن يقاطعهم شخص ما، ففضل العودة إلى غرفته في منزل العمدة ليفعل كل ما يريده بخصوصية.

. هيا بنا من هنا ويمكننا أن نستكمل حديثنا في غرفتي فهي أكثر أمانا وخصوصية

نهضت سارة وهى مأخوذة تماما بجمال التمثال، كمن وجد كنز على بابا.. لفته بحذر شديد كما كان في القماش وأخفته تحت جلبابها الفلاحي.

وفيما كان قلبها ينبض بشدة، شعر حسام أنه وبعد كل شيء لم يكن اللواء منصور مخطئا، ولم يجبره على اختيار شخص ساذج، رغم تضايقه مما فعلته بالأمس إلا أنها نالت جزءا كبيرا من ثقته حتى الآن، كان قلبه يلح على عقله أن يرفع الحذر الذي تعامل به معها منذ

البداية، تلك عادته عندما يضطر إلى التعاون مع أشخاص لا يعرفهم في قضاياه.

إلا أنه هناك شيء تأكد منه في تلك اللحظة التي ألقى فيها نظرة سريعة عليها عندما وجدت ذلك التمثال أنها امتهنت تلك المهنة حبا فيها، وليس لمجرد أن تكون لها مهنة، أو تحصل على لقب ما من وراءها، كانت نظراتها لأول مرة تكشف له جزءا من شخصيتها التي أتقنت إخفاءها منذ اللحظة الأولى لتعارفهم.

كانت نظراتها تشبه تماما تلك المحبوبة التي ترى حبيبها بعد عدة أعوام من الغياب.

دلف الاثنان خلسة إلى منزل العمدة، اتجها إلى الطابق العلوي.. فتح حسام باب غرفته، وأشار إليها لكي تدخل، فنظرت إليه وتعثر الكلام في الخروج من فمها لتعتذر عن دخولها الغرفة الخاصة به، استدرك حسام سريعا بما تفكر به.. فصحح الموقف:

. أنا آسف لكني أفضل الحديث هنا عن الحديث في غرفتك، ولا يمكننا الحديث بالخارج

فأومأت برأسها دون تعليق، ودخلت غرفته، وهى ما زالت تحتضن التمثال، كأنها تضم بين زراعيها قطعة منها!

أشار لها حسام لتجلس على الكرسي، وأحضر لها منضدة صغيرة وضعت عليها التمثال.

ألقت نظرة سريعة على التمثال، الذي كان في طول كف اليد، له قاعدة دائرية نقش على أحرفها حروف بالهيروغليفية، ما أن بدأت تتفحصه بيديها حتى انتبهت لتلك الحروف، ثم شعرت ببروز وانخفاض

أسفل قاعدة التمثال، فقلبته لترى ما يشبه المتاهة الصغيرة، من خطوط مستقيمة متقاطعة، وفى المنتصف انخفاض دائري صغير.

كان حسام مازال واقفا في ترقب منتظرا منها أن تتكلم، لكنها أدركت في تلك اللحظة حاجتها إلى الأدوات العلمية في غرفتها، فتحدثت إليه دون أن تزيح نظرها من التمثال:

. يجب أن أحضر أدواتي لأفحص التمثال جيدا.

هز حسام رأسه موافقا، تسللت من غرفته مسرعة وعادت وبيدها حقيبة، أخرجت فرشتها نظفت التمثال جيدا، ثم أخرجت العدسة المكبرة لتقرأ ما كتب مسرعة

"إيزيس ترشد، تضرب بجناحيها الهواء لتنير الظلام وتشق الطريق"

عقد حسام زراعيه أمام صدره في صمت منتظرا من سارة أن توضح له معنى الجملة، لكنها صمتت لتقرأ الجملة مرة أخرى:

. شيء غريب!

. ماذا تقصدين؟

هزت سارة رأسها:

. تبدو لي الكلمات كما اللغز، أظن أن هناك تلاعبا بالألفاظ لكني لا أفهمه

رمقها حسام في حيرة:

• لا أفهمك؟!

. ما أقصده أنه لم يدون الكلام المعتاد تدوينه على تماثيل الآلهة، لقد استخدم تلاعب لفظي في عبارات مشابهة لما اعتاد كتابته، كما أن من المعتاد للفنان أن ينحت قاعدة التمثال شديدة الاستواء لتكون

متزنة، لكنه هنا نحت عليها متاهة صغيرة، ربما هناك قطعة أخرى مكملة للتمثال

. حسنا، أريدك أن تفحصي التمثال وتخبريني بما ترينه؟!

. إنه تمثال من حجر المرمر الشفاف، عليه بعض البقع الصغيرة، ربما كان مدفونا في تربة طينية دون حماية لفترة كبيرة، وعليه بعض آثار الحفر والنخر مما يرجح إلى حد كبير أثريته، في الحقيقة لقد اشتهرت طيبة قديما باستخراج حجر المرمر وحتى الآن تعتبر مهنة استخراج المرمر ونحت التماثيل منه مهنة تضم مئات الفنانين هنا في الأقصر، فقد اعتادوا استخراج هذا الحجر من جبل الأقصر الغربي، فليس من المستغرب أن تجد تمثالا من المرمر في قرية قرب الأقصر فهي منتشرة هنا

ثم تناولت من حقيبة معداتها مصباحا للأشعة الفوق بنفسجية وفحصت التمثال، ولم يكن من العسير عليها عدم ملاحظة ذلك الوتد الذهبي الصغير بداخل التمثال، فقد كان التمثال شفافا بطريقة كبيرة كعادة حجر المرمر، وضوء الغرفة كان قويا. وبعد أن انتهت من فحص التمثال وضعت جهاز الأشعة في الحقيبة ونظرت إلى حسام:

. حسنا هذا غريب جدا..

. ما هو الغريب

. سأشرح لك، لقد كان الفنان يصنع تماثيل كبيرة وصغيرة، وربما توابيت من المرمر كتابوت الملك "سيتي الأول"، وكان يستخدم الخشب أيضا في صناعة التماثيل الشخصية وتماثيل الآلهة، لكنه كان ينحت كل قطعة من جسم التمثال منفردة ثم يثبتها بأوتاد معدنية في جسم التمثال، وأما التماثيل الصغيرة المنحوتة من المرمر لا تحتاج لاستخدام الوتد لأنها مصنوعة من كتلة واحدة، لكنى لاحظت وتدا في

منتصف التمثال فأخرجت مصباح الأشعة فوق البنفسجية.. وهو يستخدم عادة لفحص التماثيل الكبيرة إذا كانت مكونة من كتل ملتصقة، كما توضح لنا إذا كان هناك كسور في جسم التمثال حتى لو كان التمثال صغيرا، فأردت أن أتأكد من أنه لا يوجد به أي كسور غير مرئية.

. وماذا وجدتِ؟

. لم أجد أي كسور ولكنى وجدت وتدا في الغالب من الذهب، على الرغم أن التمثال كله نحت من كتلة واحدة ولا أثر لأي قطع ملتصقة ببعضها تستلزم وجود الوتد في المنتصف

. وماذا في رأيك يعني هذا؟

. الحقيقة لا أعلم.. فالتمثال كله لغز من تلك الكلمات المنقوشة على قاعدته، للمتاهة الصغيرة أسفل القاعدة لذلك الوتد الذهبي في المنتصف.. تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها تمثالا بهذا الشكل

. حسنا.. بما أنك لك الفضل في إيجاد التمثال أنا أثق أنك ستخبئينه في مكان لا يمكن أن يفكر فيه أحد، حتى أطلبه منك

هزت رأسها موافقة وأعادت التمثال إلى قمطته وغادرت غرفة حسام، الذي أمسك بهاتفه ليتحدث إلى اللواء منصور ويطلب منه أن يصدر أمرا بالقبض على مرزوق.

وبعد أن أخبره بكل التطورات، أنهى مكالمته، لكن القدر لم يمهله ليريح جسده على الفراش.

وصل إلى أذنه صراخ، وأصوات هتاف من الشارع، جرى ونظر من نافذة غرفته ليرى دخانا كثيفا يتصاعد من أحد المنازل التي تقع في

طرف الشارع المجاور لبيت العمدة، وبعض سكان القرية يركضون في الشارع في اتجاه الدخان، منهم من يحمل أواني بها مياه لإخماد النيران.

خلع عباءته.. ارتدى قميصه مرة أخرى وهرع لذلك البيت، والصراخ القادم من الشباك يتعالى أكثر مختلطا بأصوات أهل القرية الذين يطلبون مزيدا من الماء.

كانت سارة قد سمعت أصوات الصراخ والهتاف، فخبئت التمثال سريعا، واتجهت لتنظر من النافذة، وفتحت باب غرفتها فرأت حسام يجرى إلى الخارج، فأغلقت الغرفة جيدا لتتأكد أن التمثال بأمان، وركضت خلف حسام لتلحق به، حتى وصلت لمنزل صغير يطل على مجرى مائي.

كان أكبر الخفراء سنا وقف يمسك بعصاه الخشبية وقد امتلأ وجهة بالدموية وجحظت عيناه من كثرة الصراخ في الخفر ليأتوا بالماء من المنازل المحيطة في محاولة يائسة منهم لإخماد النيران.

الفصل: الثامن عشر

منزل مصطفى أبو طالب، رجل يعرفه أهل القرية جيدا فهو الرجل الذي لم يجدوا له جثمانا ليشيعوه إلى القبر!

كان ممن حاولوا الهجرة الغير شرعية في البحر فغرقت مركبه وانقطعت أخباره عن زوجته رقية، وأبنائه الاثنين، فاعتبره أهل القرية ومن قبلهم عائلته، عائلة الجبراوي في عداد الموتى، تاركا زوجته وأبناءه دون عائل أو مصدر رزق.

لم يبق لهم سوى ذلك المنزل.

الذي تلتهم النار كل ركن فيه بلا رحمة..

هو المأوى الوحيد الباقي لهم.

هيكل المنزل من الطوب اللبن والقش، مما ساهم في انتشار النار سريعا..

وقفت أمهم في حالة هستيرية تبكي وتستنجد بالناس ليدخل أحد وينقذ طفليها من الموت.

إلا النار كانت مشتعلة بشدة.. وتزداد بسرعة.. فأدرك الواقفون أن الداخل إلى المنزل هو مفقود لا محالة.

المبنى بالفعل بدأ في الانهيار.

مشهد جنوني، مثل كل المشاهد التي تستمر في الحدوث في تلك القرية.

نظرت سارة حولها تبحث عن مساعدة، فوجدت حسام يلف جسمه بأغطية الفراش، وطلب من أحد الخفر أن يصب عليه الماء حتى يبتل كله.

انهار جزء كبير من أساس المنزل في الجهة الشرقية، وانهار معه جزء من السطح العلوي الموجود به الأطفال، فتعالت صرخاتهم كثيرا.

ومعها تعالت صرخات أمهم التي لم تجد شخصا يمد يد المساعدة، وأدركت أن طفليها ميتان لا محالة لكنها ستموت معهم هكذا قرر قلبها!! اتجهت مسرعة إلى المنزل.. لكن أحد الخفر أدركها سريعا وأمسك بها أرضا.. وصرخ في النساء الواقفات ليساعدوه في الإمساك بها وجرها بعيدا عن المنزل.

تراجع الناس عن المنزل بمسافة تخوفا من انهياره

أما حسام فقد ركل الباب ودخل البيت محاولا أن يشق طريقه إلى الدور العلوي بمرارة، وهو يشعر بسخونة شديدة تحيط به.

كان الوضع داخله كالجحيم.

نظر سريعا ليبحث عن وسيلة صعوده للطابق العلوي فوجد السلم في الركن الجنوبي من البيت صعد أول درجتين واضطر للقفز ثلاث درجات فارغة كانت قد انهارت نتيجة النيران، حتى وصل إلى أعلى وأمسك بالطفلين، لكنه أدرك أنه من المستحيل سلوك نفس الدرب في العودة.

تفاعلت سارة مع الموقف، وتلفتت حولها بحثا عن أي مساعدة، فوجدت إبراهيم الذي استيقظ على صوت الصياح والصراخ يجرى مسرعا ناحيتها:

. أين حسام؟

أشارت إلى أعلى المنزل فرآه يمسك بالطفلين، ويصرخ:

. أريد سلما.

جرى إبراهيم مسرعا إلى أحد المنازل المجاورة وأحضر غطاء كبيرا وطلب من الناس حمله وشده في الأربعة اتجاهات حتى يقفز الطفلان فيه.

صرخ كبير الخفر الذي ينوب عن عرفان في رجاله ولعابه يتقافز خارج فمه:

. ساعدوه بسرعة

شدوا الغطاء جيدا من جوانبه الأربعة

قفزت البنت والولد

وصرخ إبراهيم في حسام ليقفز هو الآخر

لكن عقله قد أخذ فجأة إلى النيران وراءه!! لقد خيل له أنه رأى ظلا يسير داخلها.

وبطبيعته لم يكن يعرف الخوف أو يؤمن بالخرافات تلك الطبيعة التي تتسبب لنا أحيانا في كوارث قد تفقدنا حياتنا.. فقط كان يريد التأكد أنه لا وجود لأحد آخر في المنزل فاتجه ناحية النيران بينما يصرخ إبراهيم بالأسفل حتى يقفز.

فى تلك اللحظة شعرت سارة بوجود شيء ما داخل المنزل، لكنها عرفت ماذا تفعل بشكل غريزي، أغلقت عينيها وفكرت بتركيز في أعلى المنزل، وعلى الفور رأت ما يحدث دون أن تتحرك من مكانها!!

رأت ذلك الرجل الناري يتحرك في اتجاه حسام، سرت بداخلها قوة في تلك اللحظة اهتزت لها أطراف يدها، ولم يكن أمامها من الوقت لتفكر ما الذي يحدث لها.

فتحت عينيها..

نظرت في صدمة لأعلى المنزل قد اختفى حسام وجرى الناس مبتعدون عن المنزل بعد أن اشتعل كله.

وكل شيء بعدها حدث في دقائق معدودة، أدركت أن عليها التصرف وإنقاذ حسام من ذلك الشيء، لم يطل تفكيرها كثيرا فقد قررت ما ستفعله..

هرعت إلى باب المنزل وقد اشتعل بالكامل ودخلت فيه، رمى إبراهيم الغطاء من يده محاولا إيقافها لكن الأوان قد فات، فتراجع مسرعا بسبب السخونة القاتلة.

أما هي فقد جرت وسط النيران وعيناها شبه مغلقة، لكنها أدركت أنها لا تشعر بالحرارة كما ظنت.. النيران حولها لكنها لا تحرقها، لم يكن لديها الوقت لتفكر.. تلفتت حولها بحثا عن وسيلة صعودها إلى أعلى.. كان السلم قد انهار بالكامل، لكنها وجدت أحد الدعائم الخشبية المنهارة من السقف إحدى طرفيها على الأرض والطرف الآخر مستند على الدور الثاني، وبالطبع فإن جزءا كبيرا منها مشتعلا بالنيران.

لم تفكر في ذلك أيضا، تمسكت بالقائم الخشبي متسلقة بيديها ورجليها إلى أعلى، حتى كشفت عينيها السطح.

ما رأته تلك اللحظة فاق تخيلاتها، تلك المرة لم يكن حلما أو رؤيا حتى تزايد عليه، كان حسام ممددا على الأرض فاقدا للوعي، يقف عليه خيال من النار!!

أمسكه من كتفه رفعه في الهواء ورأسه مدلى إلى أسفل، فاشتعلت كتف حسام بالنار التى انتقلت من يد الرجل ذي الجسم الناري إلى جلبابه.. لم تتحكم سارة في نفسها فأطلقت صرخة عالية:

.لاااا

صرختها لفتت انتباه ذلك الكائن فأدار وجهه إليها بعينيه الحمراوين وتفاصيل وجهه التي تفصلت من النار، ألقى بحسام على الأرض بعنف متجها لها بينما استطاعت أخيرا تسلق القائم الخشبي لنهايته فانهار إلى أسفل فور أن لمست قدمها الأرض، تسمرت في مكانها لا تعرف ماذا تفعل وكيف تواجه ذلك الشيء.. لا تعرف هل تصرخ وتستنجد، ولكن من سيسمعها... ملأ الخوف قلبها وظنت أن النهاية قد أتت، فكرت في جزء من الثانية بأهلها وماذا سيظنون بها... توقف عقلها وإحساسها تماما، تمنت أن يكون حلما هو الآخر..

قبل أن يصل إليها ذلك الخيال الناري بخطوة توقف مكانه، حاول أن يخطو لكنه لم يستطع.. زمجر عاليا وحاول مرة أخرى، الأمر كما لو كان هناك حائط يمنعه من العبور إليها.

بينما شعرت سارة بثقل فجأة في رقبتها، فوضعت يدها على جيدها، لتتلمس تلك القلادة التي تتلألأ ببريق ذهبي فتعرفت عليها على الفور، مفتاح غنخ الذي علقه الكهنة في رقبتها!!

مرت ثانية قبل أن تدرك أن ذلك الكائن الناري لا يستطيع لمسها فقد تسمر في مكانه كالتمثال، بينما كان نظره مركزا على القلادة في رعب وخوف، طفا بداخلها شعور غريب من الاطمئنان لا تعرف له سببا.. انتهزت تلك الفرصة القصيرة وجرت مسرعة وشدت غطاء رأسها لتضرب به النيران أعلى كتف حسام لتطفئها، نظرت نظرة خاطفة على خيال النار فوجدته في مكانه ينظر إليها، لكنها أدركت أن لديها دقيقة أو أقل وسينهار المنزل، وحسام بين أيديها شبه فاقدا للوعي، لا يتحرك!

عرفت ما ستفعله وكأنما تفعل ذلك منذ ولادتها، كان عليها أن تتفاعل وتستخدم تلك القوى، حتى إذا كان بداخلها خيوط من الشك تجاهها، فالوقت الآن لا يحتمل شكوكا، فساقتها عاطفتها سريعا.

وضعت يدها الصغيرة على خده، وأغمضت عينيها وكانت تتمنى بكل قلبها أن يسترد وعيه.

شعرت بقوة تسرى من جسدها إلى جسده..

فتح حسام عينيه بتثاقل وهو ينظر حوله، على خلاف سارة التي اتسعت عيناها من الدهشة غير مصدقة أن حيلتها أفلحت.

شعر بألم كتفه، ورفع يده لتمسكها وتساعده ليقف، لم يكن بعد قد استعاد وعيه بالكامل، نظرت إلى إبراهيم الذي كان مازال يصرخ: حسام.. أشارت إليه ليشد الغطاء ويستعد، وأزاحت حسام من على سطح المنزل قبل أن يدرك ما يحدث له سقط في منتصفه.

نظرت إليه لتتأكد أنه لم يصب بأذى جراء السقوط، وتنهدت في ارتياح عندما حمله الرجال بعيدا.. لكن نظره تعلق بها في الأعلى إلا أن قواه الجسدية خانته تلك المرة حاول أن يصرخ أو يتكلم، صارع ما بداخله محاولا الإفلات من الرجال لم يستطع وفى النهاية فقد وعيه بالكامل.

في نفس الوقت.. ابتعدت سارة قليلا عن سور المنزل ونظرت مرة أخرى إلى الخيال الناري الذي ظل على حاله متصلبا مكانه يراقبها.. وجرت لتقفز أيضا في منتصف الغطاء.

اصطدمت أضلعها بالغطاء الذي أراحه الرجال في الأرض، نهضت سريعا على قدميها، ولم يمض ثوان على ركضها هي والرجال بعيدا حتى انهار المنزل بالكامل..

فى تلك اللحظة لم يكن تفكيرها في المنزل أو فيما يحدث في تلك القرية المشئومة.. أو حتى كيف نجت من النار والموت هي وحسام منذ لحظات.

سؤال يتردد داخل عقلها "لماذا أنا؟"، وضعت يدها على جيدها لتتفقد القلادة، لكنها بالطبع لم تجد لها أثرا، غاصت مرة أخرى في جسدها.. حتى أنها لم تنتبه لأهالي القرية الذين هنأوها بسلامة النجاة.. عقلها لا يفكر إلا بما يحدث لها.

في طريق عودتها إلى المنزل فكرت أن تخبر جدها بما يحدث، لكنها تخيلت رد فعله، ورد فعل والدتها ووالدها، هذا إذا صدقوها من الأساس.

بماذا ستخبرهم؟!

إنها استغرقت في النوم فرأت حلما تلبس فيه قلادة أعطتها قوى خارقة؟!

سيعرضونها على طبيب أمراض عقلية بلا شك..

كان إبراهيم قد وصل قبلها إلى منزل رمزي فأسند حسام على فراشه.. أسرع أحد أفراد الخفر، وأعطاه ثمرة بصل كبيرة مفلوقة من المنتصف ليشممها له حتى يفيق، وبعد عدة محاولات بدأ في فتح عينيه وتقلصت عضلات وجهه نتيجة للألم الذي كان يشعر به، فدخلت سارة في تلك اللحظة الغرفة وجلست في طرف الفراش بإرهاق، وقد لفت انتباهها استفاقة حسام:

. هل أنت بخير

لكن حسام هز رأسه في ضعف دون أن يتكلم.

فنظر إبراهيم إلى الخفير قائلا:

. نريد طبيبا، هل من طبيب قريب هنا؟

نظر الخفير في خجل لإبراهيم:

. للأسف لقد غادر الطبيب الوحدة الصحية منذ بدء الأحداث ولم يعد من الخوف

تكلم حسام وهو يضغط على أسنانه من الألم:

. لا بأس أنا استطيع علاج نفسي، سأكتب لك بعض الأدوية وإبراهيم سيذهب معك ليشتريها من أقرب صيدلية

لكن الخفير بدأ عليه الارتباك أكثر من ذي قبل، وتكلم ورأسه لأسفل:

. الصيدلية الوحيدة بالقرية أغلقت أبوابها بالأمس بعد حادث رجب وجمال، والصيدلي غادر القرية هذا الصباح مع عائلته

زفر حسام في ضيق، وارتسمت على وجهه كل علامات الغضب والألم، فاستدركت سارة الموقف ووقفت من مكانها قائلة:

. حسنا يمكنني استخدام الصبار لعلاج مكان الحرق، وصدقني مفعوله أفضل من الكثير من الأدوية المنتشرة في السوق للحروق

فهز حسام رأسه في تردد، فلم يكن أمامه خيارا آخر، ولا يمكنه ترك القرية للذهاب والعلاج في الأقصر، فأشارت هي إلى الخفير لتسأله:

. هل تزرعون الصبار هنا؟

فأومأ الغفير برأسه في تعجب، فأشارت له ليخرج من الغرفة ويرشدها إلى مكانه.

بينما جلس إبراهيم على طرف الفراش محدثا حسام:

. لماذا عدت مرة أخرى إلى المنزل، لماذا لم تقفز بعد أن قفز الأطفال؟

. لقد خيل لي أني رأيت ظلا وراء النيران، فذهبت لأتأكد من عدم وجود شخص آخر في المنزل، وبعد ذلك لا أذكر شيئا، فقد أغمى علي ولم أفق سوى دقيقة عندما أزاحتني سارة من فوق المنزل

. في الحقيقة تلك الفتاة تحمل الكثير من الشجاعة بالنسبة لسنها الصغيرة يا حسام بيه، الذي فعلته لم يكن ليفعله أي شخص

. نعم أعرف، فأنا أدين لها بحياتي بعد ما فعلته

. لقد اتصل أحد الخفر بالعمدة، وأخبره بما حدث، لقد رأيته يحدثه في الهاتف وأنا أحملك إلى المنزل وأتوقع أن يكون هنا في أي لحظة

. جيد، لأني أريده وأريد استجواب دجاله الذي سيحضره معه، لكن عليك أن تبقى ثرثرته بعيدا عنى وإلا كسرت فكه

فضحك إبراهيم وابتسم حسام ابتسامة صغيرة، في الوقت الذي دخلت فيه سارة الغرفة مرة أخرى وهى تحمل الصبار، وطبقا وسكينا، وأشارت للخفير فأحضر منضدة صغيرة وضعت كل شيء عليها، ثم صنعت شقا طوليا في أوراق الصبار مستخدمة السكين في ذلك، وأخرجت المادة الهلامية، إلى الطبق المسطح ثم بدأت في هرسها وتفتيتها بالسكين، بينما ينظر الخفير في تعجب لما تفعله ويتساءل في داخله ماذا تفعل تلك المرأة، لكن سارة سمعت السؤال عاليا بأذنها، ونظرت إلى الخفير لتجيبه:

. حسنا سأخبرك ماذا أفعل، لقد اعتاد المصريون قديما في استخدام هلام الصبار في علاج الحروق والجروح، وحديثا اكتشف

العلم أن الصبار يحتوى على مواد تقلل ألم الحرق، كما أنه يعمل كمادة عازلة تقتل الفطريات والبكتيريا فتحافظ على الحرق من التلوث، إلى جانب أنه يحتوى على مواد تحفز على نمو الجلد وإصلاحه

فما كان من الخفير أن ارتسم على وجهه كل علامات الذعر وتراجع إلى الخلف فاصطدم بالحائط، وهو يفكر في داخله كيف قرأت تلك المرأة أفكاري، ثم غادر الغرفة مسرعا إلى الخارج. وثلاثتهم ينظر إلى ردة فعله باستغراب، حتى قاطعتهم سارة قائلة:

. هل قلت شيئا خاطئا، لكي يفعل معي هذا؟

فرد عليها إبراهيم وهو ينهض من على الفراش ليوسع لها مجالا:

. لا تسألي يا دكتورة، فكل ما يحدث في تلك القرية غير طبيعي، فلماذا برأيك تكون تصرفات أحد الخفر استثناء لذلك.

فأومأت برأسها توافقه، وهى تمسك قطعة قماش تنظف به الحرق أولا ثم وضعت هلام الصبار عليه، وهى تقول له:

. أنت محظوظ يا سيادة الضابط فالحرق من الدرجة الثانية

فسألها حسام وهو ينظر إليها، في تعجب:

. وكيف عرفتِ أنه من الدرجة الثانية؟

. لقد اعتدت الإصابة بتلك الحروق بسبب كثرة المواد الكيميائية التي نستخدمها في الترميم

الفصل التاسع عشر

لم تمر الساعة على حادثة الحريق، حتى أتى العمدة رمزي ومعه عرفان من الأقصر، دخل مكتبه وجلس على الكرسي يدخن بشراهة، يصب غليله على أفراد الخفر، حتى دخل عليه عرفان ليخبره أن الحاج فوزي بعث بحرسه ليحضروا رقية وأطفالها ليقيموا في منزله بعد أن دمر منزلهم الحريق، فنظر إليه العمدة بغيظ:

. الآن ستعيث عائلة الجبراوي فسادا في البلد انتقاما لرقية وما حدث لمنزلها، وكأن الحاج فوزي مهتم فعلا بهما، أنا من استخدمت اتصالاتي عندما فقد زوجها لأحاول أن أجلب له جثة لتدفن هنا، وأنا من وفرت لها معاشا اجتماعيا وأدخلت أطفالها لمدرسة القرية دون مقابل، والآن الحاج فوزي يريد أن يظهر بمظهر الرجل المسئول والذي يعتني بالكل.

فى تلك اللحظة دلف حسام إلى الغرفة ملقيا السلام على العمدة، الذي حاول التظاهر بالهدوء وكتم غيظه، ثم أشار بيده لعرفان كي يغادر ويترك مكانا أكثر خصوصية للحديث:

. لقد علمت أنك أصبت في الحادث ولولاك أنت والدكتورة لأصبح أطفال رقية جثثا محترقة، أنا حقا أشكرك على ما قمت به

. هذا واجبي يا حضرة العمدة، ماذا فعلت مع المدعو فتوح الزيدي؟

. لقد قابلت الحاج سعيد، وأقنعته بالمجيء كما قلت لك في الهاتف، ولولا ما حدث لكنت أتيت وبيدي الشيخ فتوح، لكن عموما هو سيكون هنا على الساعة الخامسة عصرا

. جيد جدا، هل سيكون معه مرافقون؟

فنظر العمدة نظرة متشككة لحسام، وخمن أين سيسير به الحديث، لكنه لم يكن يملك خيارا:

. سيكون معه بالطبع الحاج سعيد، وكارم أخي الصغير. هذا إذا كنت لا تمانع فالاثنان محل ثقة لي

لكن حسام قاطع حديثه:

. في الحقيقة أمانع، فربما كشف هذا المدعو فتوح أشياء لا تريد الشرطة لأحد معرفتها، فلتكن جلسة سرية

. لكن الحاج سعيد هو من أقنعه بالحضور فكيف أبلغه أنه غير مرغوب فيه؟

. أنت رجل حكيم يا سيادة العمدة، وأنا أثق فيك وفي رجاحة عقلك وأعلم أنك ستحسن التصرف

ثم نهض حسام من مكانه وهو يبتسم، فقد وضع العمدة في موقف لا يحسد عليه.

لكنة توقف قبل أن يفتح باب المكتب واستدار محدثا العمدة رمزي:

. ماذا فعلتم مع هؤلاء الشباب الذين أصابهم الجنون أو مسهم الجن كما تقولون؟

. لقد أرسلتهم جميعا إلى مستشفى الأقصر. فقد رفض الباقون من أهالي القرية الدخول إلى المسجد والصلاة في وجودهم، الكل أصابه الخوف يا حسام باشا

هز حسام رأسه مستدركا الحديث وخرج من مكتب العمدة دون أن يمهله الوقت للكلام، واتجه إلى غرفته التي كان بها إبراهيم وسارة

مازالا يتجاذبان أطراف الحديث حول مرزوق ومنزله، فقطع حسام حديثهما عندما دخل غرفته:

. لقد أخبرته يا إبراهيم وأقنعته بأسلوبي أن يفعل ما أريده

. جيد، فالكل الآن موضع شك، بما فيهم العمدة نفسه

. نعم، كما أنني سيسهل على افتراس ذلك المدعو فتوح الزيدي كونه وحيدا في وجود العمدة.

فقاطعته سارة:

. هل يمكنني حضور ذلك اللقاء؟

. لا استطيع منعك، لكن وجودك في جلسة رجال سيثير الشكوك فهذا غير معتاد هنا

. يمكنني أن أساعدك، فأنت تعرف خبرتي في قراءة الأشخاص

فنظر إليها حسام رافعا إحدى حاجبيه:

. وهذا هو مجال دراستي، وأتعامل به كل يوم

. ولكنى برهنت لك حتى الآن أنني أفضل منك في قراءة الأشخاص

فشعر حسام بالغيظ:

. هل تشككين في قدراتي وخبرتي؟

سعل إبراهيم لأنه لاحظ عصبية حسام التي ارتسمت على وجهه، قرر أن يتدخل ليلطف الأجواء لكن سارة لم تمنحه فرصة:

. بالطبع أنا لا أشكك في قدراتك، فأنت في النهاية رجل، والرجال لا يجيدون قراءة لغة الجسد مثل النساء

حينها تدخل إبراهيم سريعا قبل أن ينفجر الموقف:

. حسنا الدكتورة لا تعنى سوى أن النساء يتقنون معرفة الرجل الكاذب فزوجتي تفعل ذلك أفضل مما أفعله مع القتلة والمجرمين الذين نواجههم

وضع حسام يديه في وسطه برغم ألم كتفه، ونظر إلى إبراهيم نظرة غضب، تراجع بسببها إلى الوراء ونظر إلى الأرض في صمت، بينما أكملت سارة الحديث:

. حسنا كما قال إبراهيم لك، النساء تعرف الكاذب مهما أتقن تمثيله، فقد ميزهن الله بتلك الهبة، فالمرأة تمتلك ما بين أربع عشرة إلى ست عشرة منطقة بالمخ، تساعدها على فهم لغة الجسد، بينما الرجل يمتلك ما بين أربع إلى ست مناطق فقط تؤهله بالكاد إلى فهم لغة الجسد، وهذا من السهل إثباته بإجراء أشعة بسيطة على المخ، هل أجريتها من قبل يا حسام بيه، لتعرف كم تملك من المراكز في مخك

فضم حسام حاجبيه في غضب وغيظ شديدين، بالرغم أنه درس ذلك في دراسته الأكاديمية، إلا أنه كان متفاجئا بأنها تعرف تلك المعلومة، لكنه قرر ألا يهزم في تلك المحادثة أيضا:

. ولماذا في رأيك يخدع الكثير من الرجال النساء ويتزوجون عليهم؟

. لا ينخدعون يا حسام باشا، فإما أنهم يتغاضون عن كذبكم بغية استمرار الحياة، أو يكون الرجل محظوظا كفاية فتنتهي جثته كاملة الأطراف على طاولة الطبيب الشرعي، ولا تنتهي مقطعة في أكياس القمامة وملقاة في كل أرجاء مصر.

ثم نهضت من مكانها في زهو، لأنها كانت تعلم أنها هزمته أيضا في تلك المحادثة، ونظرت إليه مباشرة وقالت:

. هل تعلم لماذا ميز الله المرأة بتلك الصفات دون الرجل، لأنه كان يعلم أن الرجل كائن يسير الكذب في دمه

. أنت تحملين حقدا مبطنا للرجال

. ما حدثتك به حقائق علمية، لكنك لم تجد ردا علميا يدحض كلامي فقررت أن تقلب الطاولة علي وتهاجمني شخصيا، أنه أسلوب نفسي أفهمه جيدا

نظر حسام إليها نظرة مطولة، دون أن يرد، ثم جلس على فراشه ليريح كتفه، عندها شعرت سارة أنها تجاوزت الحدود، فأكملت حديثها بطريقة لينة تلك المرة:

. أنا بالطبع لا أقصد شيئا شخصيا، وأتمنى ألا أكون قد تجاوزت أو يكون أغضبك كلامى

سحب حسام علبة سجائره وأشعل واحدة، وهو ينظر إليها قائلا:

. يبدو أن على أن أتغاضى عن تلك التجاوزات، لا خيار آخر أمامي

تجاهلت الغضب البادي على وجهه وكلامه، فكل ما أرادته إثبات وجهة نظرها:

. حسنا جيد، شكرا لسعة صدرك، هل تشعر بتحسن كتفك

. في الحقيقة نعم، فالألم قد قل كثيرا، شكرا لك

. لا شكر على واجب.... علي أن أستأذن الآن إلى غرفتي، وسأقابلكم عندما يأتي ذلك المدعو فتوح

خرجت من الغرفة مغلقة الباب وراءها، عندها نظر حسام إلى إبراهيم نظرة غضب لكن إبراهيم سارع في الدفاع عن نفسه:

. أقسم لك أنني كنت أحاول أن ألطف الحديث، فقد كنت على وشك الانفجار

. ولتلطف الحديث تأخذ صفها هي؟

. حسنا بعيدا عن أي شيء يبدو أنها مختلفة تماما مما تعاملنا معهم من قبل، وبعد كل شيء كان اللواء منصور لديه وجهة نظر مهما حاول إخبارك بها، لم تكن لتقتنع إلا إذا رأيت بنفسك

. أكره أن تكون محقا

. سأستأذن الآن لترتاح قليلا، ونتقابل الساعة الرابعة وأخبرك بنتيجة التحريات التي طلبتها مني

. جيد يا إبراهيم، لكني أريد منك شيئا آخر، أريد أن تذهب إلى مستشفى الأقصر حيث يرقد الثلاثة شباب الذين تعتقدون أن الجن قد مسهم، وتفعل ما سأمليه عليك بالضبط

هز إبراهيم رأسه واستمع بتركيز إلى أوامر حسام، ثم استأذن منه وغادر الغرفة، ولم تمض سوى عشر دقائق وكان حسام مستغرقا في نوم عميق.

بينما كانت سارة على العكس تماما، لم تذق طعم النوم، يعصف بذهنها كل ما حدث معها اليوم، لأنها تأكدت أن الحلم غير منها كثيرا وتلك القلادة التي بداخلها حقيقية، أمسكت برأسها وهي تفكر في ذلك الكائن الناري الذي هاجم حسام، وكيف كان لا يستطيع الاقتراب منها بسبب تلك القلادة.

بل أنها جعلت حسام يستفيق بمجرد أن لمسته.

أمسكت بهاتفها تقلب أرقام الهواتف لتقف عند رقم هاتف جدها دكتور توفيق، وتردد أصبعها الصغير في الضغط على كلمة اتصال.

ماذا ستخبره؟

وكيف ستختار الكلمات المناسبة لوصف ما حدث؟

لقد أثر كبر السن كثيرا على جدها وهى لا تطيق أن تحمله أحمالا، يكفيه ما فيه.

فأغلقت هاتفها وقذفت به إلى طرف الفراش وهى تزفر في غضب، متحدثة إلى نفسها، لا استطيع أنا أحكى له سأكون أفشيت سر القضية، لا أحب أن أكون غير أمينة.

أنا أثق في جدي أنه لن يخبر أحدا.

لكني لن أرى نفسي بمظهر يليق بعد أن خنت الأمانة.

سأنتظر للانتهاء من تلك القضية المشئومة.

وعندها سأخبره بكل شيء.

الفصل العشرون

في نفس الوقت في زمن غير محدد

الفتاة الفاتنة لكن تلك المرة كانت ترتدي ملابس تناسب العصر الحديث بلوزة حريرية بيضاء شفافة، أظهرت بطنها العاجي، وبنطلونا من الجينز كشفت تقاسيم وانحناءات جسدها كلوحة فنية!!

دلفت إلى ممر، إحدى جانبيه حائط علقت عليه مشاعل خشبية.. والجانب الآخر عبارة عن شرفة ضخمة مقسمة بعقود معمارية نصف دائرية تشبه قلاع القرن الثامن عشر توقفت حيث جلس أمامها سيدها العجوز على كرسي يتأمل مناظر الحقول الخضراء أمامه.

كان الرجل يبدو أصغر مما كان عليه في مكتبه الأسطوري بحوالي ألف عام!

. لا تحتاجين إلى الشرح، فالفشل ظاهر على كل تقسيمة من قسمات وجهك.

فارتبكت ليكتارا، وأجابته:

. لقد حاولت، قسما باسمك العظيم لقد أرسلت أقوى حارس لدينا، ولكنه تبخر في الهواء دون أثر..

قاطعها، وعلامات الغضب والحيرة بادية على قسمات وجهه:

. لديها قوى كبيرة، لقد شعرت بها منذ اللحظة الأولى، أنا لا أفهم كيف حصلت عليها، فأنا قتلت كل كهنة آمون منذ زمن، كيف مررت إليها تلك القوة، في غفلة منا

تنحنحت الفتاة وازدردت لعابها بصعوبة، وهى لا تفهم وقع الكلمة، فنظر إليها العجوز:

. أتمنى إلا تكون شكوكي صحيحة، لكن الآن كل ما علينا هو مراقبتها، إذا تنفست أريد أن أعرف، هل تفهمين ذلك يا ليكتارا أم أنه عسير عليك المراقبة؟

. بالطبع كل ما تتمناه سأفعله، ويمكنني أن أحاول أنا بنفسي أن أتخلص منها

. لا.. لا تحاولي فعل ذلك، فتلك القوى التي تملكها الفتاة تعود إلى العهد القديم، إلى عهد الكهنة الرعاع، أريد لها أن تحيا قليلا لأعرف كيف حصلت على كل تلك القوى، أريد أن أرى كل الخيوط، وإذا قتلتها الآن لن أعرف ما حدث، فهم يجيدون تخبئة الأسرار

. هناك شيء آخر، عندما هاجمها أحد الحراس هي والضابط، كانت خائفة جدا، ولم تكن تعرف كيف تدافع عن نفسها لولا القلادة التي أوقفت حارسنا وأفزعته، لكان فتك بها

هز الرجل العجوز رأسه وهو ينظر إلى الحقول الخضراء وهو يفكر تفكيرا عميقا:

. هى لا تعلم ما يجرى معها

. ربما ما حدث معها كان على سبيل المصادفة؟

. كم عدد القرون التي عشناها ونحن نخوض الحروب ضدهم، هل من مرة تركوا مجالا للصدفة في معاركهم ضدنا

صمتت الفتاة ونظرت إلى الأرض، رافعة إحدى يديها إلى أعلى الكتف كتحية للانصراف وهى تقول:

. حسنا سأفعل كل ما أمرت به أيها العظيم

فأشار بيده سامحا لها بالانصراف.

الفصل الحادي والعشرون

دخل إبراهيم غرفة حسام ليوقظه، وبالطبع يخبره بنتيجة تحرياته عن الأشخاص الذين كتب أسماءهم رمزي في ورقة لحسام:

. كل المعلومات التي جمعتها يا حسام بيه، نعلم الكثير منها مسبقا، هناك ثلاث عائلات يسيطرون على القرية، وينتمي إليهم أغلب سكانها، عائلة النصايرة وكبيرها العمدة رمزي، ويسانده أخوه كارم الذي يخطط ليتولى العمودية من بعده، هذا في حالة إذا تركتها لهم عائلة الجبراوي وهى العائلة الثانية في القرية، وكبيرهم الحاج فوزي والحاج رحيم، والعائلتان تعاديان بعضهما البعض منذ أن تولى رمزي العمودية فهم يرون أنه لا يستحقها، أما العائلة الثالثة فهي الفرارين وكبيرهم الحاج سعيد الذي يساعد العمدة في كل شيء، تلك العائلة مسالمة لا تتدخل في المشاكل بين الجبراوي والنصايرة، ولا يملكون من المال مثل العائلتين، أما المعلومة الجديدة التي تأكدت منها هي اشتراك رمزي وسعيد في التنقيب عن الآثار بمساعدة فتوح الزيدي، وأغلب مالهم جمعوه من بيع وتهريب الآثار، أما عائلة الجبراوي فلديهم من المناصب ما يتيح لهم الحماية والتغطية، لكنهم بالطبع نقبوا كثيرا وباعوا الكثير من الآثار، تلك القرية الكل تقريبا تاجر فيها بالآثار.

. هذا شيء كان مؤكدا لي قبل أن تخطو قدماي تلك القرية، هل فعلت ما قلته لك بشأن الأولاد المصابين في مستشفى الأقصر؟

. سأذهب الآن إلى الأقصر، وانتهى من ذلك

. جيد جدا، وأنا سأطلب من اللواء منصور أن يستخرج أمرا بمراقبة كل من تحرينا عنه، فقد اقتربت من إغلاق تلك القضية لأعود دياري لأني أكتفيت

ثم تذكر خلافه مع خطيبته هبة التي لم تتصل طوال الأيام الماضية حتى لتطمئن عليه، في النهاية مهما يطل الوقت أو قصر، عليه أن يتحمل المسئولية ويواجهها.

أمسك هاتفه ليكلم اللواء منصور، في الوقت الذي طرقت فيه سارة الباب، وفتح لها إبراهيم، نظرت نظرة سريعة إلى حسام الذي كان يتحدث في الهاتف لتسأل إبراهيم:

. هل هناك خطة ستتبعونها، أم سنتصرف بشكل طبيعي مع ذلك الدجال؟

. أنا مثلك لا أعلم، ومنتظر أوامر حسام بيه

مرت خمس دقائق قبل أن يغلق حسام المكالمة ويتجه إليهم، قائلا:

. لقد سمعتكما تتكلمان عن خطة ما، كل ما سنفعله أنا وأنت أننا سنستمع فقط لما سيقوله وأنا سأصطاد الكلمات من فمه، ونحاول ألا نثير الشكوك، أما إبراهيم سيذهب إلى الأقصر فمعه مهمة أخرى

في تلك اللحظة دوى بوق سيارة بصوت عال داخل حديقة المنزل، فذهب حسام سريعا ليلتقط سلاحه وهو يقول:

. يبدو أن ضيفنا قد وصل، اذهب أنت يا إبراهيم، وأنا سأتكفل بأمره

أومأ إبراهيم برأسه وخرج من الغرفة مسرعا، لكن سارة أكملت سير الحديث:

. ماذا لو كان الرجل ساحرا بحق وليس دجالا، سيعلم على الفور من نحن، وسينكشف كل شيء

. أنا أعلم أنه سيعلم من نحن بمجرد أن ينظر إلينا، ستخبره الخدمة أو الجان الذي لديه حقيقتنا، لكنه لن يجرؤ على الحديث،

سأزرع الرعب في قلبه قبل أن يتكلم، كم أنه لن يتمتع بالحرية كثيرا فقد صدر أمر بالقبض عليه، حالما انتهى أنا منه

. لم أكن أعلم أنك تؤمن بالدجالين

. لقد تعاملت معهم كثيرا وأعرف أنهم يمتلكون تعاويذ وجان يخدمهم، لكنى احتقرهم وأتصيدهم كالفئران، لقد قبضت على الكثيرين قبله

. ولماذا أنت مهتم به، هذا الرجل لن يحل مشكلة القرية وبالطبع لن يخبرنا بحقيقة ما يحدث

. يمكنك أن تعتبريه كالنقطة الصغيرة التي ليس لها أهمية أو معنى على الإطلاق سوى أن الجملة قد انتهت

هزت رأسها موافقة على كلامه، بينما انتهى هو من إخفاء سلاحه بملابسه، وأكمل حديثه:

. حسنا أظن أننا سنجلس بمكتب العمدة قليلا، ثم سيطلب هذا الدجال الذهاب لمنازل الرجال الممسوسين، هل ستذهبين معنا أم تبقى في البيت لحين عودتنا؟

. لا لن أذهب معكم، فأنا أكره مناظر الدماء ولا أريد تذكر ما حدث في منزل رجب وجمال

رفع حاجبيه مستغربا، بعد كل قوة الشخصية التي أظهرتها، لن تذهب لهذا السبب، لكنها لاحظت علامات الدهشة، فاستطردت:

. لا تستغرب كثيرا، فلكل منا نقطة ضعفه

. أنا ليس لدى واحدة

قالها بسرعة وبثقة لها، فغمزت بعينها قائلة:

. حسنا اترك ذلك لي، فسأكتشفها لك، هذا قلب مهنتي التنقيب عميقا، وإخراج الثمين

فابتسم متحديا، وأمسك مقبض الباب، ليتجها إلى أسفل حيث يجلس العمدة وذلك الرجل المسمى فتوح.

الفصل الثاني والعشرون

طرق حسام باب مكتب العمدة ودخل مقدما التحية، وكانت تليه سارة، سلم على الرجل الستيني سريعا، وتكفل العمدة بتعريفهم ببعضهم، مدعيا أنه تاجر القصب صديقه، وأما سارة اكتفت بإيماءة رأسها وجلست في ركن بعيد نسبيا عنهم.

كان فتوح كبيرا في السن، يرتدى جلبابا طويلا، ويمسك في يده بالمسبحة، ذقنه ليست بطويلة، لكن عينيه ثاقبتان ومخيفتان، بالطبع قد تعود حسام على التعامل مع هؤلاء الأشخاص، فلم يكن ليتأثر أو يخاف، أما سارة التي جلست بعيدا لتراقب هذا الرجل بحرية أكثر، بدأت تعود تلك الحالة لها مرة أخرى، شعورا داخليا قويا كالكهرباء بدأ يجتاح جسدها، وتعرقت يداها كثيرا، وبدأت في الارتعاش، فأمسكت بمقبض الكرسي بعد أن شعرت أنها على وشك الانهيار.

لكن رمزي لم يتوقف دقيقة عن الكلام، منذ دخولهما إلى مكتبه:

. هذا صديقي حسام تاجر قصب كبير في سوهاج، وقد جاء ليشترى محصولي وينجدني من تلك الكارثة التي حلت بمحصول القصب.

فأومأ فتوح برأسه مرحبا، ومد يده ليصافح حسام، فما كان من حسام إلا أن صافحه بقوة شديدة، فشعر الرجل بعظام يده تطقطق، وجلس في الكرسي إلى جواره بينما أكمل العمدة:

. وتلك أستاذة سارة، زوجته وشريكته في تجارة القصب

فأومأ برأسه محييا لها، دون مصافحة لأن هذا ضد عادة أهل القرى.

. لقد سمعت كثيرا عنك يا شيخ فتوح

قالها حسام مبتسما، وقد وضع يده مرة أخرى على يد الرجل بقوة، قبل أن يستطرد:

. بالطبع كل خير، فقد رأيت ما يحدث من كوارث هنا لأهل القرية، وأتمنى أن تستطيع مساعدتنا ودرء الخطر

. سأفعل ما بوسعي

وبدأ رمزي في سرد كل ما يحدث للقرية، مرورا بما حدث لعلاء، ثم الأخوين رجب وجمال، إلى جانب حريق منزل مصطفى أبو طالب.

لكن فتوح لم يكن معهم، بل لم يكن مستمعا، فقد بدأ يرتبك ويعرق، وصدره يعلو ويهبط، وقد اتسعت عيناه وهو ينظر بريبة إلى سارة، تمتم شيئا في سره عدة مرات، ونظر إليها مرة أخرى لكن تلك المرة بشكل مفزع، بالطبع رمزي لم يكن ليلاحظ شيئا، أما حسام فقد لاحظ نظراته إلى سارة، ولاحظ ارتباكها، قاطع حديث رمزى:

. بالطبع لدينا شك كبير أن ما يحدث هو سحر أسود، فما رأيك يا شيخ فتوح؟

لكنة لم يتلق أي رد، فخبط حسام على يد الرجل، فاستفاق الرجل كمن يستفيق من الغيبوبة، ونظر إليه في خوف، ليستدرك الحديث، ثم نهض سريعا من كرسيه وهو يقول:

. أريد مغادرة المنزل، أريد الذهاب لمنازل كل من أصيبوا بالسحر

فابتسم حسام ابتسامة صغيرة بخبث، فقد طلب ما توقعه منه، كما نهض رمزي من مقعده وصرخ في أحد خفره من شباك مكتبه المطل على حديقة المنزل ليجهزوا السيارة.

خرج الشيخ فتوح مسرعا من الغرفة، تبعه العمدة رمزي، وتباطأ حسام قليلا حتى يطمئن على سارة التي كانت تنتفض:

. هل أنت بخير؟ هل فعل هذا الرجل لك شيئا؟

. أنا بخير، لا تقلق

. لا يبدو شكلك بخير، أخبريني هل فعل لك شيئا، أقسم أنني سأجعله يدفع الثمن

فابتسمت سارة بصعوبة:

. صدقني لم يفعل شيئا، أنا أشعر بوهن وإرهاق شديدين لأنني لم أنم منذ أيام، سأرتاح قليلا في غرفتي وعندما تعود سأعرف منك ما حدث

هز رأسه موافقا وأسرع بالخروج ليلحق بالعمدة وفتوح، بينما استندت سارة إلى مقبض الباب، واتجهت إلى فراش غرفتها، ألقت بجسدها في إرهاق شديد، واستغرقت في النوم لأول مرة منذ أيام دون أن تشعر بالوقت.

بينما استقل حسام السيارة مع رمزي وفتوح متجهين أولا إلى بيت علاء، لم يكن في المنزل سوى والدته، فقد تركت زوجته المنزل رعبا وذهبت إلى أهلها في قرية مجاورة.

فتحت لهم المرأة العجوز بوجه يمتلئ بالوجوم، فتولى العمدة دفة الحديث:

. بعد إذنك يا حاجة، معنا الشيخ فتوح الذي جاء خصيصا من أجل علاء وما حدث له، هل يمكن أن ندخل البيت ليقرأ قليلا، ربما يكون العلاج على يديه المبروكة.

نظرت المرأة وبدأ الغضب على وجهها من جهة العمدة، لكنها أشارت لهم بيدها للدخول، فدخل ثلاثتهم وتوقف الشيخ فتوح وفي يده المسبحة، يقرأ قليلا ويهز رأسه، ثم زفر بغضب قائلا:

. هيا يا حضرة العمدة أرينا باقي الرجال الممسوسين.

خرج مسرعا، دون كلمة أخرى، فلحق به العمدة مسرعا، لكن حسام كان يراقبه جيدا، يراقب كل حركاته، وأنفاسه

استقل ثلاثتهم السيارة مجددا، وانطلقا إلى بيت رجب وجمال، وتكرر نفس السيناريو مع فتوح، لكن تلك المرة حاول مرة أخرى في القراءة، واقتضب وجهه، حتى أن حسام لاحظ شرايين رقبته قد قفزت لتظهر واضحة تحت جلده من شدة العصبية.

احتار حسام عن سبب عصبيته، إذا كان دجالا نصابا، أو حتى يملك بعض الخدام الذين يطيعون أوامره ويخبرونه بالأسرار، فلماذا تظهر عليه علامات العصبية بتلك الحدة.

زفر فتوح بعنف وهز رأسه بشدة، وغادر البيت تلك المرة دون كلام، مما جعل العمدة يرتبك بشدة ويجرى وراءه محاولا اللحاق به .

ثلاثتهم في السيارة:

. أريد اللحاق بموعد عمل في الأقصر يا عمدة فأنا لن أعود معك

فشبك حسام يديه وهو ينظر إلى فتوح الذي جلس في المقعد المجاور له:

. حسنا ماذا وجدت يا شيخ فتوح؟

. كل ما استطيع أن أقوله لكم، أن ما يحدث هنا في القرية يفوق قوتي كثيرا، ويفوق معرفتي أيضا

فصرخ العمدة بعصبية:

. ماذا تعنى بذلك؟ نريد أن نعرف، هل هذه لعنة أم جن أصبح يتلبس الكل، أم ماذا؟

. لا أعرف يا عمدة هذا شيء لم يسبق طوال عمري أن رأيته، تلك قوى أكبر منى بكثير لا استطيع أن أخاطر معها

حسام لم يكن ليكذب نبرة صوت فتوح الذي كان بالفعل مذعورا، ويده وشفتاه ترتعشان، فوضع العمدة يده على رأسه مشيرا إلى السائق قائلا:

. أوصلني أنا وأستاذ حسام إلى منزلنا، ثم أوصل الشيخ فتوح إلى الأقصر.

الفصل الثالث والعشرين

توقفت سيارة من نوع مارسيدس جيب سوداء، ذات زجاج معتم في شارع جانبي خالي تقريبا من المارة، كان بداخلها الشيخ فتوح ينظر في ساعته باستمرار، مرت عشر دقائق قبل أن يفتح باب السيارة الحاج سعيد، كبير عائلة الفرارين، جلس بالكرسي إلى جانب فتوح، الذي أمر سائقه أن ينزل من السيارة ليتناول كوبا من الشاي في قهوة قريبة ويتركهما معا.

هز السائق رأسه في خضوع، وخرج من السيارة، وانتظر فتوح أن يبتعد سائقه بالقدر الكافي حتى بدأ حديثه بعصبية:

. هل كنت تريد قتلى يا حاج سعيد، كيف تورطني في تلك الكارثة

نظر سعيد مرتبكا إليه:

. ماذا حدث يا شيخنا

. لقد قتلت كل أفراد خدمتي من الجان، لقد كدت أنا أقتل

اتسعت عينا سعيد، مستنكرا:

. ماذاا؟ كيف حدث هذا؟

هز فتوح رأسه باستنكار، ضاربا يده التي تحمل المسبحة بباب السيارة:

. تلك الفتاة التي تقيم عند العمدة، أنها ليست إنسانة مثلنا، لا أعلم كيف فعلت ذلك

اقتضب وجه سعيد:

. أية فتاة، لا يوجد في منزل رمزي سوى زوجاته

. لا أعلم، لقد قال العمدة أنها زوجة صديقه

ثم نظر فتوح بوجه يحمل كل علامات الشر إلى سعيد قائلا:

. أقسم بشرفي إذا علمت أنك أنت أو العمدة كنتم تعلمون أي شيء عن تلك الفتاة، فسأجعلكم تدفعون الثمن غاليا

هز سعيد رأسه في استنكار:

. أنا لا أعلم بأمر تلك الفتاة سوى منك أنت، ولماذا نريد أذيتك يا شيخنا، لقد كنت سببا في ثروتنا طوال الأعوام الماضية

كان فتوح ينظر إلى عيني سعيد، محاولا أن يعرف أن كان صادقا أو أنه يتلاعب به، لكن سعيد شعر بالخطر لأنه كان يعلم أن تلك النظرة نظير شؤم، فاستطرد كلامه محاولا تشتيت انتباه فتوح:

. أخبرني كيف حدث هذا؟ ماذا رأيت؟

. تلك الفتاة التي قدمها لي العمدة على أنها زوجة أحد أصدقائه الذي جاء لشراء القصب، قدمت لها التحية ثم جلست في ركن الغرفة على استحياء، بعدها شعرت بقوة غير عادية تخرج منها، وبدأ أفراد خدمتي يستنجدون بي، فأمرتهم بالمغادرة سريعا، لكن لم تمر بضع ثوان حتى بدأوا جميعا في الاحتراق

. من الممكن ألا تكون الفتاة يا شيخنا، ربما ما يحدث في تلك القرية، هو السبب

فابتسم فتوح بسخرية:

. الفتاة حولها هالة من الطاقة تعادل قنبلة نووية، لقد كادت تقتلني لو لم أتحجج بالخروج من منزل العمدة، لما نجوت

هز سعيد رأسه مستنكرا:

. سأتصل بالعمدة لأعرف منه من هي تلك الفتاة؟

فأجاب فتوح سريعا:

. إياك أن تفعل، إلا لو أردت لكلانا الموت، أنا لا استبعد أن كل ما يجرى في القرية بسببها، حتى الشيخ منذر في أوج قوته وجبروته، والآلاف من خدامه، كان سينجو منها بصعوبة

فارتسمت علامات الرعب على سعيد، الذي عرف الشيخ منذر منذ فترة بعيدة، كان الرجل أسطوريا، لم يكن أحد ليجرأ أن يلعب معه، لا ينسى سعيد تلك المرة التي ذهب فيها مع العمدة رمزي لاستخراج مقبرة كاملة كانت تقع تحت منزل حديث البناء من طابقين، كانت المعضلة لديهم أن المنزل يعوق عملية الحفر، وإذا قاموا بإزالة المنزل، انكشفت أعمال الحفر للعامة، فاستدعوا الشيخ فتوح الذي اعترف أن هذا يفوق قدراته، إلى جانب أنها مقبرة لأحد الكهنة الذين اشتهروا باستخدام السحر، وحتى إذا استطاع التغلب على معضلات الحفر، لن يستطيع التغلب على سحر حارس المقبرة.

يومها سعيد رفض الاستسلام، بسبب ما أخبره به فتوح عن محتويات المقبرة، حيث احتوت المقبرة على ثلاث مخطوطات، تنتمي لكاهن المقبرة منها مخطوطة تحمل تعاويذ سحرية، وهو يعلم بصفته تاجر للآثار أن المخطوطات المصرية القديمة هي أغلى سلعة على الإطلاق، فهي أغلى من تماثيل الذهب وتوابيت المومياوات، والتاجر الأجنبي يدفع أي ثمن يحوي عددا لا نهائي من الأصفار لشرائها.

ضغط سعيد على فتوح أن يجد لهما حلا، ووعده بالمال الكثير، فاقترح عليهم فتوح الشيخ منذر أستاذه ومعلمه، لكنه أخبرهم أنه

يطلب حصته بعد إخراج المقبرة، وأيا كان مطلبه عليه أن يعطوه له، بلا جدال أو مقاومة.

لأن فتوح كان يعلم تماما أن رمزي وسعيد لن يتورعا لحظة في قتل أي شخص يطلب ما لا يرضيهم من حصة المال أيا كان.

فوافق كلاهما، وأحضر فتوح الشيخ منذر، كان رجلا عاديا، وأقل سنا من الشيخ فتوح، ويرتدي زيا كأهل المدن قميصا وبنطلونا، أصلع الرأس، حاد البصر والبصيرة.

في البداية ظن سعيد أن فتوح يتلاعب بهم وأن ما أحضره هو مجرد نصاب لكي يأخذ فوق حصته، فأقسم بينه وبين نفسه بقتل كلاهما، بعد أن ينتهيا من مشكلة المقبرة.

وقف الرجل أمام المنزل محدقا به فترة لا تقل عن الربع ساعة، وفتوح وسعيد والعمدة رمزي يقفون وراءه في انتظار أي كلمة تخرج منه.

كلما مر الوقت كان سعيد يتأكد أن الرجل نصاب، ويتوعده هو وفتوح بكل أنواع الوعيد في سره.

حتى استدار الرجل لهما، وهو يقول:

. حسنا، سأنقل لكما المنزل في تلك الناحية

وأشار بيده إلى مكان مجاور لمكان البيت، واستطرد:

. وسأفتح لكم المقبرة، وتخرجون محتوياتها، وتغلقونها وسأعيد نقل المنزل لمكانه، ولن يرى أي شخص ما يحدث طالما لا أريده أنا أن يرى

هز سعيد رأسه بسخرية، بينما تكلم رمزي وقد ملأ العرق وجهه:

. هل أنت جاد، أم أنك تستغفلنا، أنت ترى أن المنطقة لا تخلو من المارة ولا دقيقة، كيف ستنقل المنزل بالله عليك ولن يلاحظ أحد

فاستدرك فتوح الموقف:

. الشيخ فعلها من قبل، هذا شيء هين عليه

فتنفس سعيد بعصبية قائلا:

. بافتراض أنك ستستطيع فعل ما قلته، ماذا تريد في المقابل؟

. المخطوطة.. هناك ثلاث مخطوطات في المقبرة، واحدة عن العقاقير الطبية، وواحدة تحمل صلوات كان يرددها الكهنة في المعبد لآمون، والثالثة تحمل تعاويذ سحرية، أنا أريد تلك المخطوطة

فهز رأسه سعيد بعدما تأكد أنها لعبة يلعبها عليه فتوح وذلك المدعو منذر، لكي يحصل على أثمن محتويات المقبرة، لكنه قرر مسايرتهم، وبعد أن يحصل على ما يريده، سيدفنهم مع ما تبقى من المقبرة.

لكن منذر قطع أفكاره وهو يبتسم بخبث:

. هل توافقون؟ أريد أن أبدأ العمل

هز كلاهما رأسه، فاستدار الرجل مواجها المنزل، ورفع كلتا يديه، ناظرا للمنزل بتركيز شديد، عندها حدث ما لم يتوقعه رمزي وسعيد، بدأ المنزل في الاهتزاز، ثم ارتفع عاليا، بكل أساساته الأرضية، وهبط في مكان آخر بجانب المكان الأصلي، كانت عربة كارو تمر بجانبهم وقت نقل المنزل، تحمل بعض الفلاحين، والفتيات اللاتي يعملن بجمع المحصول، وأحدهم ألقى السلام على العمدة والحاج سعيد.

نظر إليهم سعيد، فكرر الرجل السلام، استدرك سعيد الموقف ورد السلام، أما العمدة كان قد بلل سرواله فعليا مما فعله الرجل وفقد النطق قرابة العشرة دقائق.

كل من حملتهم العربة الكارو لم يلاحظوا ما يحدث، فقد بدا أنهم لم يروا منذر والمنزل الطائر في الهوا، والحفرة العميقة التي خلفها وراءه.

ثم نظر منذر إلى سعيد قائلا:

. أجلب رجالك وسلما كبيرا، وأجعلهم مستعدين لينزلوا إلى المقبرة، ليجلبوا لي ما اتفقنا عليه

ثم اقترب من سعيد، ناظرا إلى عينيه، فدب الخوف لأول مرة في سعيد وظهر عليه الارتباك، واستطرد بصوت كالفحيح

•. ولا تظن أنني لم أعلم بما كنت تفكر فيه، إذا فكرت لحظة أن تنفذ ما نويته وأخليت باتفاقنا، سأدفنك أنت ورجالك في المقبرة وأعيد المنزل ولن يعلم أحد أين اختفيتم

أومأ سعيد برأسه وعينيه على اتساعهما، أسرع فتوح في تلك اللحظة ليصلح الأجواء، فقال لمنذر:

. لا أحد سيخل باتفاقه معك يا شيخ منذر، كل ما ستطلبه، هو لك.

ثم صرخ فتوح في كبير العمال ليجعل العمال على استعداد، فأحضر العمال سلما طويلا، وسيارة نقل، ووقفوا في انتظار أن يفتح لهم منذر المقبرة.

رفع منذر يده مرة أخرى، وتمتم بعدة كلمات غير مفهومة، فاهتزت الأرض اهتزازا شديدا حتى بدا أن بعض منازل القرية ستنهار، في

الوقت الذي شعر به أحد العمال بالرعب، ألقى بالفأس التي يحملها وركض مبتعدا، لكنه بدلا من ذلك طار في الهواء ورمى على الصخرة التي تسد مدخل المقبرة، فانفتحت المقبرة وسقط العامل ميتا..

نظر منذر إلى فتوح:

. أجعل رجالك يجلبون لي ما أريده من المقبرة أولا لأني لن أدخل معهم، سأنتظر هنا، ثم أفرغوا المقبرة كما يحلوا لكم

صرخ فتوح في الرجال، وأمرهم أن يجلبوا كل ما يجدونه من مخطوطات داخل المقبرة أولا

غاب الرجال أكثر من عشر دقائق داخل المقبرة، وخرج أحدهم وبيده ثلاث مخطوطات كما قال منذر، كانت المخطوطة المنشودة ملفوفة في غلاف ذهبي، سلمها، فتوح إلى منذر، الذي تناولها بنظرة النصر التي ارتسمت على وجهه.

كان سعيد ورمزي يتابعان في صمت، لم يكن سعيد ليجرأ أن يعترض بعدما رأى قوة الرجل، قطع ذهوله مما يجرى حوله، أحد أتباعه الذي كان يركض في اتجاهه وهو يصرخ عاليا أن الشرطة في مدخل البلدة.

ارتبك سعيد، وركض مسرعا هو ورمزي إلى السيارة وتركوا العمال بداخل المقبرة، بينما اختفى منذر تماما، واستقل فتوح سيارته وأسرع مبتعدا عن مكان الحفر.

أطبقت الشرطة على المكان في تلك اللحظة وألقت القبض على كل العمال ورئيسهم فيما عرفته الصحافة بقضية "مقبرة الفرعون"، بالطبع لم يكن أيا منهم يجرؤ على ذكر اسم العمدة أو سعيد، لم يكن القانون وقتها قويا، وأقصى حكم في حقهم سيكون عامان، وهو أمر

هين لهؤلاء العمال في مقابل المبالغ المالية التي ذهبت لأسرهم من رمزي وسعيد.

بعدها بعامين، وصل إلى أسماع سعيد ورمزي خبر مقتل منذر في انهيار أحد المقابر الفرعونية، ولولا تأكيد الشيخ فتوح للخبر، لما صدق سعيد أن ذلك الرجل من الممكن أن يموت.

ذكريات طفت في عقل سعيد عندما، ذكر اسم منذر، لكنه بالطبع وبعد حديث فتوح له، لم يكن ليسأل رمزي من هي تلك الفتاة.

الفصل الخامس والعشرون

لم يكد حسام أن يغلق باب غرفته حتى رن هاتفه، كانت والدته تتصل به، تهاوى على فراشه في ضيق، كان يعرف سبب الاتصال وما سيقال بينه وبين والدته وكيف سينتهي، وبعد أن سكت هاتفه، اتصل هو بها، ومر بنفس السيناريو الذي كان يعرفه مسبقا قبل الاتصال.

شجار بينه وبين والدته لأنه أغضب خطيبته، ولم يكلف نفسه ويتصل بها طيلة الأيام الماضية، وبواقع خبرته مع والدته في تلك المواقف لم يخرج من فمه سوى كلمات معدودة "أنا آسف، حسنا، سأفعل ما تريدين، نعم، فعلا، لديك حق".

أغلق مكالمته مع والدته، وتبادر إلى ذهنه سارة، اتصل بها لكنها لم ترد، شعر بالقلق لكنه قرر أن ينتظر نصف ساعة ليتصل مرة أخرى، ثم اتصل بإبراهيم، ليعرف ماذا فعل في تحريات المستشفى التي كلفه بها، وقد جاء ما كان يفكر فيه تماما، ولأول مرة منذ أن تولى القضية يبتسم، جلس على الكرسي المقابل لنافذة غرفته التي كانت تطل على الحقول، وأخرج علبة سجائره ليشعل واحدة، ينفس دخانها ببطء، وهو يفكر في شيء واحد، كم سأفتقد هذا الكرسي ومنظر الحقول الخضراء أمامه وهدوء القرية.

لأول مرة يشعر بنعمة الهدوء والسكينة وفراغ البال، الذي لم يره منذ أن قرر الارتباط، نحن لا نشعر بالقيمة الحقيقية لما نملكه إلا عندما نفقدها، إحساس الفقدان يهبنا تقديرا حقيقيا ومنطقيا للأشياء، هل كنا نحب ذلك الشيء، أم لم نكن..

إذا افتقدناه بشدة فأننا أحببناه بشدة.

وإذا لم نفتقده.. فنحن لم نحبه من البداية.

وبينما كانت السيجارة تحتضر في فمه لتخرج آخر ما لديها من دخان، فكر أنه وبعد عدة أعوام سيكون تفكيره مشغولا بأطفاله، واحتياجاتهم.

فأغمض عينيه وأراح رأسه إلى الخلف في صمت، دون أن يفكر في أي شيء.

الفصل السادس والعشرون

وقف الدكتور توفيق في غرفة مكتبه بفيلا المعادى يتأمل كل تفصيلة به.

جاء في زيارة مفاجئة لابنه وحفيدته، بالطبع كان يعلم أين هي سارة وماذا تفعل، لم يكن ليخفى عليه.

جلس على كرسي مكتبه المهترئ، الذي لم يكف عن إصدار الصرير مع كل حركة منه، لم يتغير مكتبه كثيرا فقد احتفظت سارة بكل شيء كما هو.

تلك الغرفة هي مشكاة من الذكريات بالنسبة إليه، فقد أرهقه الزمن، وتدهورت صحته كثيرا.

نظر إلى صورة زوجته منى الموضوعة على المكتب في إطار ذهبي، أمسك بها وحدثها بصوت مسموع:

لقد ذهبت للأبد وذهبت معك الحياة

لم أذقها منذ فراقك لي

والآن حفيدتنا تسلك دربا الله وحده يعلم نهايته

كنت مخطئا عندما شجعتها، لقد كانت ذكية بالفطرة مثلك تماما.

كنت غبيا ولم أفهم، وتغافلت عن المستقبل.

أجهش بعدها بالبكاء لدقائق، لم يوقفه سوى رنين الهاتف، نظر إليه سريعا دون أن يرد، نهض من كرسيه مستندا على عكازه الخشبي، واتجه إلى سيارته وأمر سائقة بالانطلاق.

ظل يتأمل المصريين في الشوارع وفى السيارات، وكأن البلاد تبدلت تماما.

ازدحام شديد في كل شارع وتكدس السيارات كعلب السارديين، عاد به الزمن لتذكر حديث زوجته منى وهى تضرب بوق السيارة بعصبية حتى يفسح لها أحدهم الطريق، حاول وقتها تهدئتها، لكن بدلا من الغضب وجد الحزن على وجهها، حدثها قائلا:

. ما بالك يا منى حزينة، لا أصدق أن قيادة السيارة وسط الازدحام فعلت بك كل هذا

. ليست قيادة السيارة يا توفيق إنما المستقبل

تنهد توفيق بعد أن فهم ما ترمى إليه:

. إنه بيد الله يا منى

. نعم وقد أعطانا الله عقلا لتخطيطه، المصريون ليسوا فصيلة من الأرانب حتى يفعلوا بأنفسهم وأولادهم وأحفادهم كل هذا

ثم ضربت على بوق السيارة مرة أخرى، والتفت لتأخذ منعطفا آخر أقل ازدحاما، واستطردت:

. هل تعلم أن عدد سكان مصر عام 1900 كان 10 ملايين نسمة، وخلال خمسين عاما أي في عام 1950 وصل عددنا إلى 20 مليونا، ثم في عام 1979 تضاعف عددنا إلى 40 مليونا، والآن لا يستطيع العداد مواكبة عدد المواليد، ستنهار الصحة والتعليم، والآداب والذوق العام، ستتحول منازلنا إلى أعشاش من البوص، ولن نجد طعاما نظيفا لطفلنا، ولا تعليم راق

. لم أكن أعرف أنك أصبحت خبيرة في أشياء أخرى غير التاريخ؟

. وما أخبرتك به تاريخ، أنا لم أكن أفكر في تلك الأشياء قبل ولادة عادل، لكنني أصبحت أفكر في كل شيء، وأحسب حسابا معقدا للمستقبل

هز توفيق رأسه متفهما حالة القلق التي انتابت زوجته منذ ولادتها عادل، هي تريد له الأفضل في كل شيء، نظر إليها محاولا تغيير سير الحديث:

. اخبريني مجددا إلى أين تأخذيني؟

فابتسمت لزوجها قائلة:

. لقد عثرت على مكتبة قديمة في شارع جانبي بالقرب من ميدان طلعت حرب، سنشترى الكثير من الكتب

. جيد، ولكنى لم أكن أعلم أن شراء الكتب هو نوع من أنواع الترفيه، فقد قولتِ أننا سنذهب لنرفه عن أنفسنا

ضحكت منى بصوت مسموع، بينما ابتسم توفيق بعدما أبعد الحزن من عينها، فقالت له:

. إنه أرقى أنواع الترفيه يا عزيزي توفيق، لا يمكن أن أصف لك الراحة النفسية التي أشعر بها عند شراء كتاب جديد

. لكنى لم أكن أعلم بوجود مكتبة في ميدان طلعت حرب

. إنها مكتبة قديمة جدا يا عزيزي

. وكيف لا أعرف بها، وأنت تعرفين

. لأن عنوانها كان مدونا في أحد الكتب القديمة، ولكن لم تكن تفهمه مهما قرأته

. ماذا تقصدين؟ أنت تعرفين أنني لست غبيا

ضحكت أيضا بصوت مرتفع، وردت قائلة:

. أنا لا أقصد ذلك، لكن ما كان مدونا أنها موجودة في ميدان سليمان باشا

. لم أسمع به من قبل

. بالضبط، وغالبية المصريين لا يعرفون أن ميدان طلعت حرب في الأصل كان اسمه ميدان سليمان باشا، وكان يتوسطه تمثال لسليمان باشا أيضا، ولكن تم إزالة التمثال واستبداله بتمثال طلعت حرب وتغيير اسم الميدان لاسمه الآن "ميدان طلعت حرب"

. أنا أعرف أن سليمان باشا هو أول من أنشأ كلية حربية في مصر، وهذا كل ما أعرفه عنه

. طبيعي فأنت لم تدرس سوى التاريخ القديم، أما أنا فقد درست تاريخ مصر كله

ابتسم توفيق، ولاحظت زوجته تلك الابتسامة، لتسأله عن سببها:

. هل يبدو كلاما مضحكا لك؟

. لا يا حبيبتي مني، على العكس تماما فأنت أروع زوجة على الإطلاق، وأنت بجانبي لا يمكن أن أشعر بالملل، وخاصة أثناء قيادة السيارة، أنا لا أذكر أنني احتجت يوما أن افتح الراديو أو حتى كاسيت السيارة وأنت تجلسين بجانبي.

استفاق توفيق في تلك اللحظة بخيط رفيع من الدموع الساخنة يسيل على خده، فعاد إلى سيارته في الزمن الحاضر، وأخرج منديلا قماشيا قديما، رسم عليه كلمة توفيق، كانت قد صنعته له زوجته، ومسح دموعه سريعا قبل أن يلاحظ سائقه.

كانت السيارة قد وصلت إلى ميدان طلعت حرب "ميدان سليمان باشا" سابقا، فأخبر توفيق سائقه أن ينزله على رأس الشارع ويتركه ويذهب عائدا إلى المنزل حتى يتصل به مرة أخرى.

ترجل من السيارة مستندا على عكازه، وتمشى قليلا ثم دخل أحد الشوارع الجانبية الصغيرة، ومشى لمدة دقيقتين حتى وصل إلى مكتبة قديمة، تبدو أثرية أكثر من الميدان نفسه، فتح بابها الخشبي العتيق ودخل.

كانت المكتبة من الداخل نظيفة جدا ويبدو عليها القدم الشديد، تتراص الكتب على الأرفف في انتظام، حتى أن الكتب نفسها عتيقة للغاية أغلبها يعود طباعته لقرون، بعضها بغلاف جلدي، أصبح لونه قاتما مع مرور الزمن.

وقف توفيق أمام أمين المكتبة العجوز الذي كان يجلس على المكتب، ورفع كم إحدى ساعديه، ثم أخرج عملة معدنية من الذهب الخالص، وضعها في صندوق من خشب الأبانوس، فأنارت عبارات صغيرة من الهيروغليفية في طرف الصندوق السفلى.

رفع أمين المكتبة طرف عينه ناظرا إلى ذراع توفيق، التي ظهرت عليها وشم عين حورس، مرسومة بحبر قاتم ثم تحول الحبر كله إلى خيوط من النور واختفى الوشم مرة أخرى.

تحرك أمين المكتبة من مكانه، واتجه إلى ممر ضيق تداعت فيه ألوان الحوائط بسبب الزمن، ثم فتح بابا صغيرا واضطر للانحناء ومن بعده توفيق للمرور.

أغلق الباب وراءه، واضعا يده على إحدى حوائط الغرفة فظهرت الكثير من الكتابات الهيروغليفية المنيرة واشتد نورها حتى أضاءت الغرفة كلها، ثم اختفى الحائط بأكمله وظهرت من وراءه مكتبة أكبر

كثيرا من المكتبة الخارجية، تتوسطها منضدة بيضاوية كبيرة جلس خمسة أشخاص تقترب أعمارهم من عمر دكتور توفيق.

ووقف اثنان آخران أحدهما يبحث عن كتاب ما في أحد الرفوف بينما، الآخر يقف أمام نموذج مماثل تماما لدائرة الأبراج التي سرقت من معبد دندرة.

دائرة الأبراج هي لغز من أشهر ألغاز التاريخ، تناقلت عنها القصص والأساطير حتى وصلت إلى مسامع سبستيان سولنية الذي قدم طلبا إلى محمد علي باشا لينزع الدائرة من مكانها وينقلها إلى باريس عام 1820، ثم اشتراها منه الملك لويس الثامن عشر ليضعها في مكتبة باريس الوطنية، بعدها انتقلت إلى متحف اللوفر في باريس عام 1919، وهي محفوظة به حتى الآن.

تمثل دائرة الأبراج، نقطة غير مرئية في المنتصف ترمز على الأغلب محور دوران الأرض، والنجوم التي تقع حول تلك النقطة هي النجوم الثابتة التي لا تغرب، وقد اسماها المصري القديم النجوم أبدية الظهور "اخمو سك"، نرى إلى جانبها أنثى فرس النهر "نبت اخت" وقد لقبها المصري القديم بسيدة الأفق، حيث كانت مهمتها ربط النجوم الثابتة بمحور الأرض حتى لا تهرب.

ثم نرى حول النجوم الثابتة الأبراج الفلكية "السرطان، الحوت، الميزان... إلخ "، ثم المجموعات النجمية مثل مجموعة الشعرية اليمانية، وكويكبة الجبار orion، وغيرها من المجموعات النجمية.

ورغم ذلك التفسير إلا أن الكثيرين اختلفوا في قراءة الدائرة، والهدف الأساسي من وجودها.

فقام دكتور توفيق باستنساخ تلك اللوحة، وأتي بها إلى مقر المكتبة، كان يعلم أن بها لغزا لا يعرفونه.

لأول مرة منذ قرون كانت تلك الدائرة تتغير كل دقيقة تتحرك فيها الأشكال ومواقع الآلهة، وتتغير الكتابة الهيروغليفية، وحركة الأبراج والكويكبات.

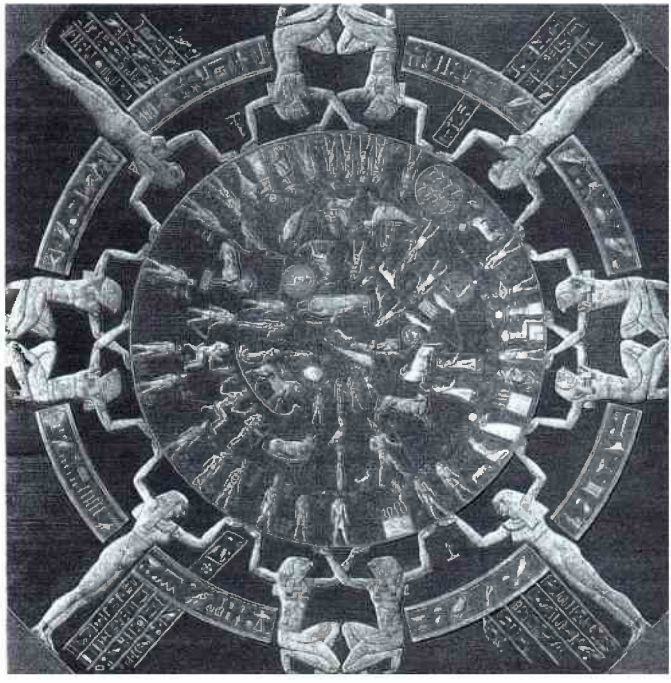

صورة دائرة الأبراج

اتجه الدكتور توفيق بعدما قدم التحية لمن يجلسون على المنضدة المستديرة، ثم اتجه إلى الشخص الواقف أمام دائرة الأبراج وصاح:

. مرحبا يا منصور، اشتقت إليك يا صديقي العزيز

فالتفت إليه اللواء منصور مبتسما:

. مرحبا بك يا توفيق، مر زمن منذ أن التقيتك

. ما الذي يحدث؟

. لا نعرف لقد بدأت في التحرك منذ عدة أيام، لم نكن متواجدين لنعرف متى بالضبط بدأت بالتحرك، كنا نأمل أن تخبرنا أنت؟

وضع توفيق يده التي امتلأت بالأوردة وهي ترتعش على فمه وهو يقول في ذهول:

. يا إلهي

الفصل السابع والعشرون

الساعة الثامنة ليلا في منزل العمدة:

امتلأ الصالون بالأدخنة المتصاعدة من سيجارة حسام، والأرجيلة التي يدخنها رمزي، كان حسام قد بدأ يضيق زرعا من غباء رمزي، رغم الابتسامة التي كانت يرسمها له طوال الوقت ليأخذ ما يريده من رمزي، ولو كانت سارة موجودة لأيقنت، أن رمزي كان يصطنع الغباء ليحصل على المعلومات من حسام، وحسام يصطنع الابتسامة ليجعل رمزي ينفذ ما يريده، ضغط حسام سيجارته الثالثة في المطفأة وهو يقول:

. يا عمدة كل ما أريده أن تتصل بكبار القرية، الأشخاص الذين سلمتني أسماءهم من قبل، وتخبرهم أن الشرطة تريد أن تجتمع بهم في بيتك غدا صباحا، ما الصعب في ذلك؟

. لا شيء صعب يا حسام باشا، لكني أريد أن أعرف الأسباب، وهذا من حقي؟

. لا شيء، أنا فقط سأسألهم بعض الأسئلة، هل من مشكلة في ذلك؟

. لا يا حسام باشا، لا مشكلة معي أو مع الحاج سعيد، لكن الحاج فوزي والحاج رحيم من عائلة الجبراوي، وبيننا وبينهم الكثير من المشاكل، بالتأكيد سيرفضون الحضور

زفر حسام دخان سيجارته بعصبية واضحة:

. إذا رفضوا، أخبرني فقط وأنا سأقنعهم بطريقتي

كان العمدة يعلم أنهم سينتهزون تلك الفرصة ويأتون إلى بيته لشكوته وشكوة كل عائلته، وتحميله وزر كل ما يحدث داخل القرية، شعر بغضب وزفر آخر دخان أرجيلته، ليصرخ مناديا عرفان حتى يغير له حجرا آخر، جاء عرفان حاملا في يده الفحم المشتعل وجلس في الأرض، أما حسام فقد أطفأ سيجارته الأخيرة، وهو يتمعن في عرفان ثم حدثه قائلا:

. منذ متى وأنت مصاب بالبهاق يا عرفان؟

ابتسم عرفان، وظهر الارتباك عليه قائلا:

. كنت طفلا صغيرا عندما أصبت بذلك المرض

. لقد قابلت الكثيرين مصابون به

نفخ عرفان في إحدى قطع الفحم، ووضعها على الأرجيلة بحرفية ثم التفت إلى حسام ليرد:

. نعم ولكني الوحيد في القرية الذي أصبت به، لقد اعتاد الأطفال على مضايقتي، وتجنبوا اللعب معي حتى تركت المدرسة ولم أكمل تعليمي

. إنه الجهل يا عرفان، أنت مريض بالبهاق، وهم مرضي بالجهل، وصدقني الجهل أكثر قتلا

نهض حسام من جلسته، ثم استأذن العمدة ليستريح، تسلق درجات الدور العلوي وقبل أن يصل إلى غرفته، فتحت سارة باب غرفتها.

ابتسم حسام، قائلا:

. أرجو أن تكوني قد نمت نوما هنيئا

. لقد شعرت أني ذهبت في غيبوبة

. حسنا لقد فاتك الكثير، هل لديك بعض الوقت؟

أغلقت سارة باب غرفتها وهي تقول:

. بالطبع، أريد أن أعرف كل شيء

اتجها معا إلى غرفة حسام، ليسرد لها بالتفصيل ما ينوي عمله في الغد، وقد أتى الغد أسرع مما توقعوا

الفصل الثامن والعشرون

رن جرس الباب، نهض العمدة مسرعا ليستقبل الضيوف، كان الحاج رحيم ومعه الحاج فوزي، كل منهما يرتدي جلبابا صعيديا مماثل لما يرتديه أهل البلدة.

إلا أن الحاج فوزي كان أكبر سنا وأقل صحة من الحاج رحيم الذي ارتدي نظارة طبية.

جلس الثنائي على كراسي الأنتريه بينما عرفهم العمدة بضيوفه حسام وسارة.

فبدأت علامات التعجب تظهر على وجوههم، ولم يكن من الصعب لكل منهما تخمين سبب تواجد الثلاثي في القرية.

أما الحاج سعيد فقد وصل متأخرا بنصف ساعة، واعتذر بسبب ظروف الطريق.

لكنه كان يرتدي بنطلونا وقميصا خلافا لما يرتدي أهل القرية.

جلس ثلاثتهم على كراسي الأنتريه بينما نهض حسام ليتكلم، وهو يرسم على وجهه ابتسامة لطمأنتهم.. فتوسمت خلجاته لأول مرة منذ وصوله القرية.

. نأسف على إزعاجكم، لقد طلبت من حضرة العمدة إحضاركم إلى هنا، لأنكم كبار البلد، فكما ترون الموضوع خطير، وأنا أثق أن مصلحة القرية تهم جميعكم

صاح الحاج فوزي مختطفا سير الحديث:

. يا حضرة الضابط نحن على استعداد لتقديم أي مساعدة، لأن الكثير من أهل القرية تضرروا وخسروا الكثير من المال

هز الحاج رحيم رأسه موافقا إياه قائلا:

. الأرض تموت والعمال هربت خوفا، ولا نجد من يجني لنا المحصول

أومأ حسام برأسه موافقا:

. أنا على علم بكل هذا، لذلك فقد استعنت بدكتورة متخصصة في دراسة الآثار

وأشار بيده إلى سارة وأكمل قائلا:

. وبعد تحريات وبحث مكثف، عرفنا أن كل ما حدث بسبب رجل من القرية اسمه مرزوق

تعلقت أعين الحاج سعيد بحسام في جمود، بينما قفز الحاج رحيم من مقعده:

. نعم بالطبع نعرفه، فقد كانت فضيحته على ألسنة أهل القرية لقرابة الأسبوعين

. بالضبط يا حاج، لقد فتشنا منزله ووجدنا تمثالا أثريا

وأشار بيده إلى سارة، التي كشفت عن رأس التمثال ممسكة إياه بالقماش دون أن تلمسه

. سبب الكارثة أن التمثال كتب عليه باللغة الهيروغليفية سطرا واحدا ترجمته الدكتورة إلى تحذير أن من سيدنس التمثال ستصيبه لعنة والآلهة ستأكل لحمه

قال الحاج رحيم:

. يا الله.. هذا ما حدث بالضبط مع علاء ورجب وجمال.

. بالضبط يا حاج، الدكتورة قالت إن قاعدة التمثال رسمت عليها خريطة أثرية لمقبرة أو معبد، لا نعلم ما هي

تقدمت سارة ووضعت التمثال برفق على منضدة صغيرة في وسط الغرفة وتعلقت عيون الجميع في التمثال، ولكن سعيد كان نظره موزعا ما بين التمثال وسارة، بعد ما أخبره به الشيخ فتوح، كان يجلس خائفا ويتعرق كثيرا، حتى لاحظ كل من حسام وسارة ما ظهر عليه

اعتدل سعيد في جلسته محاولا تشتيت فكره ونظره متعلق بالتمثال:

. وماذا يمكننا فعله لك

. بسيطة يا حاج، نريدكم أن تتحدثوا مع أهل القرية، تخبروهم أن المشاكل والحوادث قد انتهت وعلي الكل أن يعود إلى بيته، واشرحوا لأهلها ما حدث، وجناب العمدة تفضل مشكورا بطلب شيخ ليقرأ في شوارع القرية القرآن لطمأنة الناس

. لكن هذا هو دور العمدة رمزي

نظر حسام إلى العمدة رمزي، وأعاد نظره إلى الحاج سعيد محاولا أن يكون كلامه مرتبا ومقنعا لأقصى درجة:

. الناس تحمل الكثير من الغضب المفهوم والمبرر للعمدة، وسيكون من الصعب أن يقتنع كل أهل القرية بكلامه، هو بالطبع سيقوم بدوره ويخبرهم، لكن حتى يقتنع أهل القرية عليكم أن تقولوا نفس الكلام، خصوصا أن كلا منكم على رأس عائلة كبيرة، وله كلمة مسموعة عند أهل القرية

الحاج فوزي متوليا سير الحديث:

. ليس لدينا أي ممانعة في ذلك، لكن المهم أن تكون اللعنة قد انتهت بالفعل، ولا تحدث حادثة أخرى، وقتها سنكون كذابين أمام عائلاتنا وأهل القرية

. اطمئن يا حاج فوزي، لقد انتهى الموضوع بالفعل، والدكتورة ستأخذ التمثال غدا في حراسة الأمن إلى خارج القرية

وبينما كان حسام يتكلم قاطعته ضجة كبيرة حدثت بالخارج توجه العمدة إلى باب المكتب، وخرج ليجد رئيس الخفراء يمسك بأحد الصبية يضربه ويعنفه.

فخرج وراءه حسام وسارة، تاركين التمثال على المنضدة.

وتعالت الأصوات بخارج المكتب، حيث حاول الولد التسلق على أحد شرفات غرفة النوم الخاصة بزوجة العمدة الثانية وأمسك به عرفان.

شد العمدة الولد من ياقة جلبابه ليضربه، بينما صرخ الولد عاليا محاولا الاستنجاد.

خرج على إثر الصراخ الحاج فوزي ليحاول تهدئة العمدة ومعه الحاج رحيم، أمسكا بالعمدة وأبعداه عن الولد.

بينما خرج وراءهم الحاج سعيد، وأمسك بالولد وطلب من العمدة إطلاقه طالما لم يسرق شيئا، حتى لا يثير المشاكل أكثر في القرية.

وهنا التفتت سارة إلى الوراء لتطمئن على التمثال نظرا لخروج الجميع، دخلت مسرعة إلى مكتب العمدة، أمسكت بالتمثال ووضعته في لفافته القماشية.

وخرجت متجهة إلى غرفتها.

الفصل التاسع والعشرون

الساعة الثالثة فجرا تحرك كل من إبراهيم وحسام وسارة في سيارتهم متجهين إلى الأقصر، وهناك كانت قوة كبيرة من الأمن المركزي في انتظارهم.

ترجل حسام وإبراهيم من السيارة، وبينما كان حسام يرتدي واقي الرصاص، أمال رأسه إلى شباك السيارة ليحاول إقناع سارة في البقاء في أحد المكاتب بقسم الشرطة:

. من الأفضل أن تنتظري في المكتب، هناك أكثر أمانا لك

. لا.. أنا سوف انتظر هنا إذا كنت لا تمانع!!

. بالطبع لا أمانع

تنهد حسام لا يسعه الاعتراض فهي عنيدة، ثبت سلاحه في جانبه، توجه في سيارة أمن مركزي ضخمة ومعه إبراهيم، إلى أحد أحياء الأقصر.

ترجل من السيارة متوجها إلى أحد العمائر السكنية الفخمة، اجتاز مدخلها الرخامي وصعد إلى الطابق الرابع ومعه قوة أمنية في هدوء.

ركل باب أحد الشقق السكنية بشدة فتحطم، وجد أمامه رجلا يرتدي جلبابا صعيديا يحمل سلاحا، فهجم عليه حسام وضربه في فكه، بينما اثنان من قوة الأمن المركزي أحاطوا به وأمسكوه، انتزعوا منه سلاحه واقتادوه للخارج.

في تلك اللحظة خرج من في الشقة محاولين تدارك ما يحدث، إنه الحاج سعيد، الذي رأى الشرطة وهي تقتحم غرف المنزل فصرخ فيهم ليتوقفوا!

لم يلتفت إليه حسام ، بل أشار إلى أفراد الأمن حتى يمسكوا به.

وفي الغرفة المقابلة أخرج أفراد الأمن ممسكين بثلاثة من الصينيين.

قيدت القوات الجميع، واقتادتهم إلى مديرية أمن الأقصر.

في نفس الوقت، قوة أمنية ذهبت إلى منزل العمدة رمزي، وقبضت على رئيس خفرة عرفان، قيدوه واقتادوه إلى الأقصر ليتم التحقيق معه أيضا.

الفصل الثلاثون

جلس حسام في أحد مكاتب مديرية الأمن، وجلس أمامه عرفان الخفير، بينما جلست سارة على أريكة صغيرة، في جانب الغرفة.

كان الصمت يعم المكان، وحسام يدخن سجائره واحدة تلو الأخرى بهدوء وهو ينظر إلى عرفان الذي وقف أمامه مكبل اليدين.

نهض من كرسيه خلف المكتب وجلس بالكرسي المقابل، ثم أشار لعرفان بالجلوس.

تردد عرفان في البداية، كان مرتبكا ويبتلع ريقه بصعوبة، محاولا إخفاء كل ذلك، لكن بالطبع فشل.

مال على عرفان وهو ينظر في عينيه مباشرة، فشعر الأخير بشعور الفأر المحاصر داخل مصيدة، عندما بدأ حسام في الحديث:

. حسنا يا عرفان، أو دعني أناديك بلقبك النمر أفضل من عرفان..... بالطبع تتساءل كيف علمت، في الحقيقة لم يكن الموضوع عسيرا، عندما أخبرني إبراهيم إنه استجوب تلك الفتاة التي دفعت لها لتنام مع مرزوق، وأخبرته أن الرجل الذي دفع لها اسمه النمر، وأنا أفكر لماذا يسمي شخص نفسه بهذا الاسم، أو لماذا يسميه الناس بذلك؟

لابد من سبب وجيه لتلك التسمية، وخاصة عندنا نحن المصريين، ثم جذب انتباهي الهاق الذي يملأ جسدك، فقررت أن أسألك عنه.. عندها عرفت منك أنك الوحيد الذي أصيب به في قريتك، كما شعرت من نبرة صوتك الظلم الذي تعرضت له بسبب المرض، بالطبع حاولت

تعويض ذلك في التنمر على باقي الخفر، والتسمية التي استحببت إطلاقها عليك، أنه نقص نفسي درسناه قديما

ابتلع عرفان لعابه في ارتباك، ونظر بعيدا عن عيني حسام:

. أنا لا أعلم بما تتحدث، ولا أعلم من هو النمر، وليس لي علاقة بما يحدث في القرية

نهض حسام من الكرسي المقابل لعرفان واتجه إلى المكتب وأخرج منه كيسين من المواد البيضاء الملفوفة في أكياس للأدلة الجنائية، وألقاهم أمام عرفان الذي زاد ارتباكه عند رؤية الكيس، بينما استطرد حسام:

. حسنا، هذا هو المخدر الذي رششته على محصول القصب عند علاء ورجب وجمال، وبالطبع عند حرق القصب استنشقوا المخدر بكميات كبيرة، فظهرت عليهم الهلاوس، وظن الناس أنهم ممسوسون، ذلك الكيس كان في منزلك وذهبت منه عينة للمعمل الجنائي لتأكيد تطابقها مع المخدر الذي وجد في دماء الضحايا، أما الكيس الآخر، فهو لمواد سريعة الاشتعال وهو السبب في اشتعال منازل أهل القرية، فقد أخذنا عينة من كل المنازل المحترقة، لنتأكد أنها متطابقة

هز عرفان رأسه بعنف وهو يقول:

. أنا لم أدسس مخدرا لأحد، ولم أشعل منزل أحد، ولا أعرف من أين أتت تلك الأكياس

ضحك حسام، مسترسلا في صيد عرفان:

. بصماتك تملأ الأكياس، كما أن تلك النوعية من المخدر تصنع حصريا في الصين، ولا يعرفه المصريون بعد والمعمل سيؤكد التطابق

صمت بعدها حسام لدقيقة أخرج فيها سيجارة أخرى ليشعلها، واستطرد وهو ينظر لعرفان:

. هل تعلم يا عرفان أن المشكلة الكبرى هي إذا رفضت الاعتراف، وقتها ستخرج بكفالة وهنا ستحدث المشاكل... فالعمدة رمزي يتوعدك منذ أمس، وقد شرحت له الموضوع، ناهيك عن أهالي علاء وجمال ورجب، ضع إلى جانبهم أصحاب المنازل المحترقة، والأهالي الذين خسروا أموالهم بسبب المحصول الذي فسد.. أنت بالطبع تعلم كيف يتم الانتقام لديكم، صدقني لن تجد مكانا أكثر أمانا من السجن لتهرب إليه، وإذا خرجت لا تتخيل لحظة أن الشرطة ستحميك.. أما إذا

تعلق نظر عرفان بحسام كالفأر الذي تعلق بفتيل خوفا من السقوط في الماء.

. إذا تعاونت معي، واعترفت بكل شيء، أعدك أنني سأضعك بسجن بعيد عن الصعيد كله، كما أن تعاونك سيخفف من الحكم الذي سيصدره القاضي عليك.

هز عرفان رأسه موافقا، لأنه كان يعلم أن بمجرد خروجه من المديرية سيقتل على درجاتها قبل أن يخرج منها، في السجن له فرصة للحياة والخروج بعد عدة سنوات، سيكون الموضوع قد نسي تماما، ويستطيع أن يعيش في أي مكان بعيد، أما إذا خرج، فهو ميت ميت لا محالة.

بعدها حكي كل شيء إلى حسام، الذي كان يستمع بتركيز لحديثه وسط ذهول سارة وتعجبها من استسلامه واعترافه بسهولة، حتى انتهى تماما من دوره، وأتى على ذكر الشيخ فتوح، وقبل أن يحكي ذلك الجزء نظر بطرف عينه إليها، ظن حسام أنه لا يريد أن يحكي في وجودها:

. حسنا يمكنك الحديث، دكتورة سارة شريكتي في القضية وعليها أن تعلم كل شيء.

فابتلع عرفان لعابه للمرة الألف وظهر عليه الخوف والارتباك معا، وتكلم:

. لقد أخبرني الحاج سعيد أنه سيقنع العمدة بجلب الشيخ فتوح لتدخل عليه الخدعة، وإذا اكتشف ما نفعله سنمنحه مبلغا من المال ليصمت، لكن الحاج سعيد أخبرني أن الشيخ فتوح أتى من القرية مذعورا، وهو يقسم أن....

صمت عرفان لمدة ثوان قبل أن يستطرد:

. إن دكتورة سارة كادت تقتله، وأنها قتلت كل خدمه من الجان، وأقسم الشيخ للحاج سعيد أنها لا يمكن أن تكون إنسانة مثلنا

نهضت سارة من مقعدها وهي تصرخ فيه:

. ماذا؟ هل أنتم مجانين أنا حتى لم أر الرجل سوى بضعة دقائق

بينما ضحك حسام، محدثا إياها:

. ألم أخبرك أنه نصاب

رن حسام جرسا بجانب المكتب، فدخل أحد أفراد الشرطة، اقتاد عرفان إلى الحجز، أما سارة فقد ظهر عليها الارتباك الشديد، في داخلها كانت تعلم أنها بالفعل فعلت شيئا ما إلى ذلك الدجال، هي نفسها شعرت بقوة هائلة تخرج منها، وبعدها فقدت الوعي في غرفتها من كثرة الإرهاق.

بينما وقف حسام في زهو، لقد تخلصنا من عرفان النمر، وبقي الثعلب الكبير، المدبر لكل هذا.

نظرت إليه سارة:

. حسنا لن يصعب عليك سعيد، فلديك أسلوب مقنع في الاستجواب، في الحقيقة أنه أسلوب مميز للغاية، لم أكن أظن أن عرفان سيعترف أبدا

. أنت تجيدين عملك وأنا أشهد لك بذلك، وأنا أيضا أجيد عملي

أومأت برأسها لتوافقه، بينما استطرد هو:

. سوف استجوب سعيد في غرفة الاستجواب، أريد أن أضع عليه ثقلا نفسيا في تلك الغرفة الكئيبة لأكسره، يمكنك أن تشاهدي الاستجواب من طرف الغرفة المظلم، لأن رؤيتك سيضعف موقفي معه

. حسنا ولكني أريد أن استفسر منك عن شيء ما؟

. بالطبع، تفضلي؟

. لقد أخبرت عرفان أنه وضع مخدرا، وهو الذي سبب تلك الهلاوس للضحايا، وما رأيته لا يمكن أن يكون من تأثير المخدرات

ابتسم حسام بثقة، تلك هي أول مرة يشعر أنه يفوقها معرفة بعد كل ما أخبرته به، وهزائمه منها في المعارك الكلامية بينهما:

. لم أكن لأعرف أن ذلك تأثير للمخدر لولا دورة تثقيفية عن أنواع المخدرات الجديدة، كانت تقيمها وزارة الداخلية، المخدر الذي تحدثت عنة هو "الفلاكا"، وهو مخدر صناعي، يختلف عن المخدرات النباتية الرائجة في مصر كالحشيش والأفيون وخلافه، اسمه العلمي "الفا بي في بي"، ثمنه رخيص ورائحته كريهة، يكون على شكل حبيبات يمكن أن تؤكل، أو تستنشق، أو تعاطيها عن طريق الحقن.

المخدر يصنع في معامل في الصين، وما يفعله ذلك المخدر هو كارثة، لأنه يزيد النزعة الحيوانية مع كثير من الهلوسات الشديدة، وبالطبع سبق أن رأيت فيديو لمن تناولوا ذلك المخدر وعانوا من أعراض تشبه تماما ما رأيته مع رجب وجمال، وكان القاسم المشترك في الثلاث ضحايا هو حرق بقايا القصب، وبعدها ظهرت عليهم الأعراض، تأكدت بعد علمي بجنسيات الأجانب التي زارت القرية ليلا أنه المخدر. فطلبت من إبراهيم سرا أن يقوم بعمل تحليل للضحايا، وتحليل لعينات من بقايا القصب في حقولهم

هزت سارة رأسها مبتسمة مع سير الحديث:

. وبعد كل شيء، هناك صورة أخرى منك تحترم العلم، لم أتخيل أنها موجودة بك.

ضحك بزهو واضح وفتح لها الباب ليخرج كلاهما من الغرفة، واتجها إلى غرفة الاستجواب التي وضع بها سعيد.

الفصل الحادي والثلاثون

في غرفة مربعة، أضاء سقفها مصباح صغير متهالك أصفر اللون.

بينما أظلمت جوانب الغرفة التي لم يصلها نور المصباح، لتخلق جوا كئيبا.

دخل بعض الهواء البارد من فتحة شباك صغيرة للغاية، تقترب من السقف.

منضدة حديدية تتوسط منتصف الغرفة، جلس سعيد على أحد الكراسي، وفي الناحية المقابلة له جلس حسام.

بينما انزوت سارة في أحد الأركان المظلمة، تجلس على كرسي ولا يظهر من ملامحها أي شيء بسبب الظلام السائد.

أشعل حسام سيجارة، وأراح ظهره على الكرسي، وضاقت حدقتا عينه مركزا نظره على سعيد:

. هل تحب أن أخبرك ما فعلته في قرية كاملة، كيف دمرت أهلها، وشردت أسرها، وكل ذلك لماذا؟

لعدد أصفار أخرى يضاف إلى حسابك البنكي، ألا يكفيك ما جمعته من مال؟

نظر إليه سعيد بحذر قائلا:

. أنا لم افعل أي شيء

. هل تعتقد أن محاميك سيخرجك من تلك المعمعة، صدقني أنا اختلف كليا، فقد أغلقت أركان قضيتي جيدا بحيث سيحتار محاميك فيها وسيطلب تخفيف الحكم

نظر سعيد إلى أرض الغرفة هربا من نظرة حسام له، مكررا ما قاله:

. لقد أخبرتك أنني لم أفعل شيئا، وطوال وقت الأحداث كنت خارج القرية أقيم في الأقصر

ابتسم حسام بسخرية، ونهض من مكانه ليتجول في دوائر حول سعيد لإرباكه أكثر:

. بالطبع أنت لم تفعل شيئا، في البداية دعني أقول لك أن عرفان قد اعترف بكل شيء وشهد ضدك، وشهادته لا تحمل شكوكا للقاضي، كما أن مرزوق قبض عليه واعترف أنه باع لك الخريطة

ابتلع سعيد ريقه بصعوبة وهو ينظر إلى حسام، الذي أكمل قائلا:

. لقد أخبرني عرفان أن مرزوق كان يحفر في أرضة لزراعتها، عندما وجد قمطة قماشية احتوت على تمثال وخريطة، باع لك الخريطة، لكن لم يعجبه سعر التمثال الذي قررت شراءه به، وعندما عرضت أنت المخطوطة على التجار الصينيين طلبوا منك شراء الاثنين معا، تخميني أنه كان مبلغا خياليا

ولأن الطمع قاتل، رفضت أن تدفع أكثر لمرزوق وقررت عمل فضيحة له ليهرب خارج القرية دون أن يجد فرصة لإخفاء التمثال أو حتى أخذه، وهنا جاء دور عرفان الذي اعترف أنك أمرته أن يصنع فضيحة لمرزوق

وبالطبع ذهبت للمنزل وفتشته أكثر من مرة ولم تجد شيئا فظننت أن مرزوق تصرف فيه

في الوقت نفسه كان أصدقاؤك الصينيون ينقبون ليخرجوا ما كانت تدل عليه الخريطة وهي مركب فرعونية ضخمة، نقلوها ليلا على

دفعات إلى منزلك في القرية، حتى يجدوا طريقة ليخرجوها خارج القرية.

بالطبع تركت المنزل لكي لا تثير شكوكا، وأقنعك الصينيون بخطة تفريغ القرية من سكانها حتى يتثني لهم نقل المركب ولن يتم ذلك سوى بترهيب الأهالي وإلصاقها بلعنة الفراعنة والجن.

وبالفعل نفذت تلك الخطة، فأرسلت عرفان ليرش المواد سريعة الاشتعال على المنازل وسخونة الشمس قامت بدورها واشتعلت الحرائق

أما الجديد كليا هو مخدر الفلاكا الذي أعطاك أياه الصينيون لتكمل خطتك

من وجهة نظري كانت خطوة في غاية الغباء لأنني عندما رأيت ما حدث إلى رجب وجمال كدت أصدق في وجود الجن، لكن عندما أتت التحريات برؤية أصدقائك التجار في البلدة تذكرت ذلك المخدر وما يفعله من هلوسات مرعبة للإنسان، ولا تصنعه سوى الصين، لم يكن علي سوى تجميع الخيوط معا لأحصل على ما أريده

ضم سعيد شفتيه في يأس، بينما اقترب حسام منه:

. استمع إلى النقطة الفاصلة، لقد أخذت أذنا من النيابة للتسجيل لك، وقمنا بتمثيلية صغيرة لكم في مكتب العمدة، قررت أن أملك دليلا دامغا وموثقا، حتى لا أترك ثقوبا في قضيتي، عندما طلبت من العمدة رؤيتكم، وأخبرتكم كذبا أن التمثال ملعون، وهو سبب كل كوارث القرية، ثم افتعل أحد المخبرين قصة السرقة، وجعل صبيا يتسلق شرفة زوجة رمزي وبينما حدثت الضجة والفضيحة، وخرج الجميع بقيت أنت وأمسكت بالتمثال لتصوره بهاتفك، لقد وضعت الدكتورة التمثال دون لمسه فبصماتك كلها عليه، بالإضافة إلى أننا

وضعنا كاميرا صغيرة مخفية في مكتب العمدة صورت كل ما فعلته بالتمثال

ارتبك سعيد، وامتلأت جبهته بالعرق، ابتلع لعابه ناظرا إلى يديه المكبلتين:

. لقد كنت فضوليا، لا أكثر.. هذا لا يثبت شيئا

. بالطبع يثبت الكثير، لم يكن أحد ليجرأ أن يلمس التمثال بعدما أخبرتكم به من اللعنة وبعد ما حدث من كوارث في القرية سوى من كان متأكدا أن التمثال لا يحمل لعنة، سوى ما كان هو نفسه وراء حوادث القرية

دعنا نسلسل الأدلة التي نملكها ضدك، أولا اعتراف عرفان ومرزوق، ثانيا تصوير الفيديو بأذن النيابة، المركب الأثرية التي وجدناها في منزلك في القرية مخبأة في طابق أرضي، والصينيون الذين يقيمون في شقتك بالأقصر، وجدنا معهم الخريطة، وكيس آخر من ذلك المخدر

المعمل الجنائي سيقول كلمته فيه، وسيبقي أفضل حل لك أن تعترف وتوفر وقتك ووقتنا، وربما بعدها يستطيع محاميك أن يجلب لك تخفيفا للحكم

انحنى سعيد برأسه على الطاولة ووضع كلتا يديه على رأسه، منهارا، لم يتكلم لمدة دقائق جلس خلالها حسام على الكرسي المقابل له في انتظاره لكي يتكلم، حتى تكلم أخيرا:

. أريد محاميا حتى أتشاور معه

هز حسام رأسه موافقا ونهض متجها إلى الباب هو وسارة، وقبل أن يغلقه نظر نظرة أخيرة إلى سعيد

الفصل الثاني والثلاثون

في صالة الاستقبال في الفندق الذي تقيم فيه سارة، جلس حسام يرتشف قهوته، امتلأت مطفأة السجائر أمامه ورغم ذلك ظل يحرق ويحرق مزيدا من التبغ.

سيسافر غدا ليواجه والدته وخطيبته، يتمني من كل قلبه أن تتبدل الأمور ويذهب ليواجه عصبة من المجرمين بدلا منهم، ذلك ما يجيد التعامل معه.

في انتظار سارة حتى يريها ما وجدوه في بيت سعيد، تلك المركب الضخمة، لم تتسن الفرصة لها لرؤيتها، في اليومين الماضيين كانت تحاول جمع شتات بحثها حتى تعود سريعا، تطوع حسام جالبا لها ملفا من الصور لتلك المركب، ورغم سؤاله صديقا له، يعمل مدرسا في الجامعة، لكنه اعتاد أن يسمع وجهة نظر مختلفة منها.

بينما كان في الانتظار، كانت هي تتحدث في الهاتف إلى جدها، الذي أخبرها بوجوده في مصر، لم يكن هناك خبر أكثر سعادة لها من خبر نزول جدها من لندن، وبعد الترحيب والمزاح الذي اعتادته منه طلب منها أن تأتي إلى القاهرة، فهو يريد التحدث معها في موضوع ما.

شعرت من نبرة صوته بأن هناك شيئا خاطئا يحدث معه، أخبرته أنها تقريبا انتهت من بحثها وستعود اليوم التالي إلى القاهرة، ثم أغلقت المكالمة لتترك غرفتها سريعا إلى استراحة الفندق.

كان حسام قد طلب فنجان القهوة الثاني عندما رأي سارة قادمة نحوه، نهض من مكانه مرحبا بها، وجلسا معا، قبل أن ينادي على الجارسون مرة أخرى:

. ماذا تودين أن تشربي؟

. أريد كوبا من الشاي

كتب الجارسون الطلبات وغادر، عندما بدأ حسام حديثه:

. آسف على إضاعة وقتك ولكني أريدك أن تلقي نظرة على صور تلك المركب، وتخبريني بكل ما تعرفينه عنها

ناولها مظروفا ضخما به الكثير من الصور، أخرجتها واستمرت في تقليب الصور وفحصها أكثر من عشر دقائق ثم استخرجت ثلاث صور وضعتهم جانبا وأعادت الصور إلى المظروف مرة أخرى، أتي الجارسون بطلباتهم عندما بدأت سارة بالكلام:

. حسنا يمكنني أن أخبرك أن هذا أضخم مركب أثري مصري عثر عليه حتى الآن، من الواضح أن تلك الطبقة الخارجية هي من الذهب الذي طلي به الخشب مستخدما إياه كعازل عن المياه، أما تلك الكتابات فقد قرأت فقرات كثيرة منها من تلك الصورة، وهي تتحدث عن قصة إيزيس وأوزوريس، بالطبع تعرفهم أو على الأقل سمعت عنهم من قبل؟

. بالطبع، تلك القصة الرومانسية البائسة، التي تنتهي بمقتل أحدهما، أو بمقتل الاثنين معا، المهم أن نشعر بالحزن والكآبة في النهاية

تعجبت من رده لكنها أكملت الحديث:

. حسنا عليك أن تعلم أولا أن أجدادنا أول من بنوا المراكب وطوروها، وقد ظنوا أن الشمس تحملها مركبة ذهبية تسير بها في السماء طوال فترة النهار، وأسموها "معنجت"، وكانت هناك أيضا رحلة ليلية واسموها "امسكتت"، كما أن روح الميت في رحلتها إلى

الحياة الأخرى تحتاج مركبا لتنقلها لذلك صنعوا مراكب الشمس بجانب الأهرامات لكي تنقل روح الفرعون إلى الحياة الأخرى

المهم، ارتبطت المراكب لدي أجدادنا بنازع ديني فطوروها، واهتموا بمظهرها كثيرا، في الدولة القديمة استخدمت دفة خشبية بدلا من المجاديف في تحديد اتجاه المركب، وفي الدولة الوسطي ابتكروا شيئا عبقريا، وهي سفن قابلة للفك إلى أجزاء ويعاد تركيبها مرة أخرى، لنقلها في رحلاتهم عبر البر، فمثلا إذا اضطررت إلى قطع رحلة برية طويلة لن تستطيع حمل سفينة أو مركبا ضخما، وأن استطعت ذلك سيصيبه العديد من التلفيات ولكن إذا استطعت تفكيكه إلى قطع صغيرة وحمله وإعادة تركيبه مرة أخرى سيكون أكثر سهولة وأمنا، وإذا تضررت قطعة ما من أجزاء المركب سيكون من السهل استبدالها بدلا من استبدال المركب بالكامل، في رأيي تلك هي قمة العبقرية والابتكار

المركب التي وجدناها في بيت سعيد تنتمي لتلك الفئة لأنها أجزاء يمكن تركيبها كما ظهر في الصور، لكني لاحظت شيئا غريبا

وضع حسام فنجانه بعد أن انتهى منه في دقيقة، ومال رأسه إلى الأمام رافعا حاجبيه ليسمع ما ستقوله:

. هل ترى تلك الصورة، تلك القطعة الخشبية أخمن أنها من ظهر السفينة، لكن هل ترى الدائرة الصغيرة، وتلك الحزوز الصغيرة المنحوتة بداخلها

. نعم ماذا بها؟

. ألا تذكرك بشيء ما؟

فكر قليلا ضاما حاجبيه، مركزا نظره على الصورة ثم قال بعفوية:

. التمثال

. بالضبط هل تتذكر قاعدة التمثال كان بها حزوز تشبهها في رأيي أن هذا التمثال يستخدم كموجه لدفة السفينة إلى مكان ما

. ماذا تقصدين؟

تنهدت، وهي تنظر إليها:

. إنها قصة طويلة متداخلة هل لديك وقت لتستمع إلى محاضرة علمية؟

. بكل سرور، هذا عملي

. حسنا دعني أخبرك أولا كيف كان يحتفل المصريون بعيد إيزيس وأوزوريس، كان أجدادنا يحتفلون بهذا العيد في شهر كيهك، وهو شهر مازال المزارعون يستخدمونه في الزراعة حتى الآن، هذا الشهر يوافق تقريبا شهر ديسمبر، وكانت مراسم الاحتفال تختلف ما بين وضع الزهور حول تماثيلهم، أو الذهاب في رحلة في النيل تبدأ من معبد أبيدوس في سوهاج، ثم يأتون بتمثال لإيزيس من المرمر ويضعونه في مركب ضخم يضم كبار الكهنة، وتتحرك السفينة وسط التراتيل الدينية حتى يصلوا إلى مقياس النيل في أسوان، كان هذا الاحتفال هو احتفال بزواج إيزيس من أوزوريس، واستخدام النيل كان رمزا لأن النيل هو من أرشدها إلى جثة زوجه.

حسنا هل تذكر ما كتب على طرف التمثال السفلي؟

أخرج حسام الصور من الظرف، لكنها أوقفته بإشارة من يدها:

. لا داع لأن تخرج صورة التمثال أنا أحفظ تلك الجملة جيدا، "إيزيس ترشد، تضرب بجناحيها الهواء، لتنير الظلام وتشق الطريق"

الجملة الأولى وهي "إيزيس ترشد" في اعتقادي أن التمثال ما هو إلا مفتاح يوضع على تلك الدائرة التي سبق أن أريتها لك

ثم تناولت الصورة الأخرى، مستطردة:

. هل ترى تلك القطعة أنها أسفل المركب، إنها غريبة للغاية، وشيء جديد لم أره في أي مركب من قبل، هل تذكر تلك اللعبة التي اعتدنا أن نلعبها ونحن صغار، وهي متاهة صغيرة تسير فيها الكرة حتى تصل إلى مكان أكثر انخفاضا، هذا ما تشبهه تلك القطعة، وتلك الكرة المرتبطة بالخشب بقطعة من الذهب، غالبا متصلة بشراع المركب لتغير اتجاه سيره في المياه، في اعتقادي أنها بوصلة مصممة ببراعة وعبقرية اعتدت عليها من أجدادنا لإيصال تلك المركب لمقياس النيل، أو مكان آخر لا أعلم بثقة إلى أين، أما التمثال فهو مفتاح المركب إلى تلك الرحلة وبدونه ستكون مركبا عاديا

أما عن باقي الجملة..

لكن حسام قاطعها في الحديث:

. لحظة واحدة، تقولين أن المركب تسير في رحلة محددة بـ كرة أسفل المركب تسير في متاهة لتغير اتجاه الشراع، وبالتالي تغير اتجاه المركب، أنا ما أعلمه أن اتجاهات الهواء تتغير كل يوم، كيف تضمنين أن المركب ستتجه إلى المكان والرياح تتغير كل يوم؟

ابتسمت وهزت رأسها متعجبة:

. لآلاف الأعوام، ومازالت الشمس تتعامد على وجه رمسيس الثاني في عيد مولده وعيد جلوسه على العرش، لكن دعني أقنعك بالسبب أن يوم نزول المركب المياه سيكون محددا أيضا، أخمن أنه منتصف كيهك فهو عيد إيزيس لديهم، وربما يكون شيء ما مكتوبا على إحدى القطع لم أقرأه.

رفع حاجبيه متعجبا، وأشار إليها لتكمل الحديث:

. دعنا نكمل تلك الجملة المكتوبة على التمثال، الجملة التالية "تضرب بجناحيها الهواء" وهي في تخميني تعني الأشرعة التي تستثمر قوة الهواء لتقود المركب، أما باقي الجملة فهي غير مفهومة لي، "لتنير الظلام وتشق الطريق"، تلك عبارات غير مرتبطة بعملية الإبحار

تنهدت قليلا وهي تنظر مرة أخرى إلى الصور، ثم قالت متشككة:

. ربما هناك لغز آخر لم نعرفه بعد، تلك الاكتشافات تحتاج إلى دراسة قد تستمر لسنوات، وما أخبرتك به هو أقصى اجتهاد لي

أومأ برأسه متفهما:

. لقد شرحتِ أكثر كثيرا مما شرح صديق لي يعمل بالجامعة، ومن موظفي وزارة الآثار الذين تولوا نقل المركب والتمثال

. ربما أنت لم تطرح السؤال الصحيح عليهم؟

. لا، أنت تحبين تلك المهنة، كما لم أر أحد من قبل، ولذلك أنت متفوقة، أنا اعترف لك بذلك فقد استفدت منك كثيرا

. شكرا لتلك المجاملة، وكان شرف لي العمل معكم فقد زادت خبرتي

نهض من مكانه، مستعدا للرحيل:

. وأنا أيضا، لقد استفدت كثيرا، أشكرك لمجهودك معي وأتمنى أن تقبلي أن أستشيرك في أي قضية احتاج فيها إلى استشارة

. بالطبع في أي وقت

نهضت لتصافحه، وهي تشعر أنها حققت إنجازا لنفسها بالاشتراك في تلك القضية، تركها حسام وغادر الفندق وذهبت إلى غرفتها لتتم حزم حقائبها، لمغادرة الأقصر في صباح اليوم التالي.

الفصل الثالث والثلاثون

ألقت بحقيبة سفرها في الأرض ودارت تبحث عن جدها منادية باسمه حتى وجدته في مكتبه، كان حضنا طويلا ذلك الذي استقبلها به جدها، ربما يعوض عن الشهور التي مرت دون رؤيتها

. افتقدتك كثيرا يا بنيتي

. ليس أكثر مني يا جدي

دخلت في تلك اللحظة ياسمين إلى الغرفة:

. لقد رأيت حقيبة ملقاة على الأرض، علمت منها أنك بالمنزل

. أنا آسفة يا أمي فأنا لم أر جدي منذ شهور

واتجهت إليها فاحتضنتها وقبلتها، حتى تمتص ذلك الغضب البادي على والدتها:

. أين أبي؟

. في عيادته لن يأتي قبل ساعتين، هل أعد لك الغداء

. لا سأنتظر أبي.

قاطع توفيق حديثهم:

. سنشرب أنا وسارة الشاي في أحد المقاهي.

تجهم وجه ياسمين:

. يمكنني أن أعده لكم هنا، لماذا الخروج وابنتي مازالت متعبة من السفر

. أنا لست متعبة يا أمي، وأحتاج إلى تناول الشاي جدا

استدرك توفيق غضب ياسمين:

. لا تقلقي يا ياسمين هذا المقهى يقدم شايا إنجليزيا رائعا، كما أنني افتقد حفيدتي وأريد الخروج معها

ارتسمت على ياسمين كل علامات الغضب، بينما أعطت سارة ظهرها لوالدتها وهي تساعد جدها على النهوض والخروج سريعا خارج المنزل، وهي تقول بصوت خافض:

. دعنا نخرج من هنا يا جدي قبل أن تقتلنا معا

صارت السيارة قليلا في المعادي، قبل أن يأمر دكتور توفيق السائق أن يتوقف إلى جانب كورنيش النيل، ترجل من سيارته وسارة تمسك بيده لتساعده، ثم أمر السائق أن يغادر ويأتيهم بعد ساعة من الآن.

وأشار بيده إلى حفيدته لتجلسه على مقعد خشبي متهالك أمام النيل، دهشت من طلبه لكنها ساعدته حتى جلسا معا.

. ما بك يا جدي؟ أنت متغير كثيرا ووجهك يخبرني أنك تحمل الكثير من الهموم

. يا بنيتي قبل أن أخبرك بأي شيء، أريدك أنت تعلمي أنني عندما شجعتك على دراسة الآثار لم يكن لدي أي فكرة أن كل هذا سيحدث

تعجبت قائلة:

. ما الذي حدث، وما علاقة مجال دراستي بأي شيء؟

تنهد في حزن وقد سالت دمعة غصبا عنه:

. لقد بدأ كل شيء عندما قررت جدتك عمل أطروحة علمية عن بعض شخصيات العصور القديمة، وقد دفعت حياتها ثمنا لذلك

. ماذا، هل تقول لي إن جدتي قد قتلت؟

الفصل الرابع والثلاثون:

جلس حسام في مكتب اللواء منصور، منتظرا إياه حتى ينتهي من قراءة التقرير الكامل للقضية، مرت عدة دقائق، أغلق بعدها منصور التقرير مبتسما لحسام:

. عملا رائع يا حسام، لم تخيب ظني بك أبدا

. أشكرك كثيرا يا فندم

. أنا لا أجاملك تلك حقيقة، أنت جدير بها

. في الحقيقة أنها ليست مجهودا فرديا، لقد ساعدني إبراهيم كثيرا، كما أن دكتورة سارة كانت عونا كبيرا لي في تلك القضية، هم يستحقون الشكر أيضا

. لقد أعجبني تواضعك فمن هم مكانك سيسرقون الإنجاز لأنفسهم

أطفأ منصور سيجارته مستطردا:

. أفهم منك أنك اقتنعت أنني كنت محقا، في اختياري لتلك الدكتورة حتى تساعدك

. في الحقيقة نعم، لقد أفادتني كثيرا، وتعلمت منها الكثير

. جيد جدا، لأني أخبرتك سابقا لو تذكر أن نجاحك في تلك القضية سيعتمد عليه عدة أشياء

ابتلع حسام لعابه في عصبية أخفاها عن اللواء منصور منتظرا، إجابة السؤال الذي مكث كالصداع في رأسه:

. لقد كنت أفكر منذ مدة أن أكون فريقا دائما في وزارة الداخلية، لبحث قضايا سرقة الآثار، والحوادث الغريبة التي ترتبط بها

وفي الحقيقة أردت أن يكون الفريق مكتملا، أي أن أعضاءه ضابط شرطة ومختص في الآثار، وبالطبع أمين شرطة وعضو أو اثنين آخرين يمكنك أن تختارهم ليساعدوك في أي قضية

سيكون لذلك الفريق مقر في المبني به أجهزة حديثة، وسأوفر الميزانية التي تريدها إليكم، لأنك ستكون قائد ذلك الفريق

ظهرت علامات الدهشة على حسام، ناظرا في صمت إلى اللواء منصور، وعندما طال صمته استطرد منصور قائلا:

. ستكون تجربة، كما كانت تلك القضية تجربة وإذا لم تنجح سأحل الفريق ويعود كل منكم إلى عمله القديم، لكني أتوقع لكم نجاحا كبيرا، الصحافة منذ الأمس تنشر صورتك، وتمدح فيك كثيرا

لم يجد حسام مفرا، لكن في أعماقه رأي أنها تجربة وإذا لم تنجح يمكنه المغادرة كما وعده منصور:

. كما ترى يا فندم، سأفعل ما تأمرني به

. ليس لي طلبات أخرى، سوى...

فتح درج مكتبه وأخرج ملفا ضخما أعطاه لحسام:

. هذا ملف دكتورة سارة، الملف السابق كان تعريفيا مقتضبا، أما هذا الملف كل ما نملكه عنها، عليك قراءته

نهض من مكانه وفي يده الملف مؤديا التحية العسكرية لمنصور وهو يقول:

. تمام يا فندم كما تأمر

ثم غادر مكتب منصور إلى مكتبه، وجلس على تلك الأريكة التي اعتاد النوم عليها في فترات عمله الطويلة، فتح الملف ليتصفحه، كان يحتوي معلومات الدراسة، ومعلومات عن والدها ووالدتها، وجدها وبالطبع جدتها، عندما قرأ أنها قتلت نهض من نومته واعتدل ليفتح ملفا مرفقا صغيرا عن تحقيقات القضية، كان الملف يحتوي على صورة مني جدة سارة، وهي ملقاة على الأرض ممتلئة بالدماء، وثقبان كبيران في رقبتها.

تصلب حسام في مكانه وارتعشت يده وهو ينظر إلى تلك الصورة، فقد تذكر ذلك الحلم المزعج الذي قتلت فيه سارة على يد ثعبان ضخم، كانت نفس الإصابة وبنفس الشكل.

وبينما كان ممسكا بتلك الصورة، والقشعريرة تملأ كل جسده، سقطت صورة أخرى قديمة من الملف، كانت الصورة التي صورها دكتور توفيق مع الطفل الصغير داخل غرفة الولادة قبيل ولادة سارة بدقائق، تعرف عليه على الفور:

. يا إلهي، أنه أنا

وهز رأسه في غير تصديق:

. هذا لا يمكن أن يكون صدفة

إلى تكملة في الجزء القادم..

سارة تتغير حياتها بحلم..

تتصادم أقدارها بالضابط حسام..

ماض غامض وحاضر أكثر غموضا..

عزيزي القارئ مهما جالت في رأسك توقعات لنهاية تلك الرواية. فأنت مخطئ.. لأن تلك القصة تختلف عما قرأته سابقا.

أعدك أنها تحترم عقلك وتفكيرك وتثري ذهنك بمعلومات حقيقية.